ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً الآية : قراءة أهل المدينة وأهل الشّام بالتّاء . وأهل مكّة وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء ، وهو اختيار أبى عبيد[1] قال أبو عبيد : المعنى : لو يرى الّذين ظلموا فى الدّنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه أنّ القوّة لله جميعًا . ويرى على هذا من رؤية البصر . قال النّحّاس فى كتاب معانى القرآن له : وهذا القول هو الّذى عليه أهل التّفسير . وقال فى كتاب إعراب القرآن له : وروى عن محمّد بن يزيد أنّه قال : هذا التّفسير الّذى جاء به أبو عبيد بعيد وليست عبارته فيه بالجيّدة لأنّه يقدّر : ولو يرى الّذين ظلموا العذاب . فكأنّه يجعله مشكوكا فيه ، وقد أوجبه الله تعالى ولكنّ التّقدير وهو قول الأخفش : ولو يرى الّذين ظلموا أنّ القوّة لله ، ويرى بمعنى يعلم ، أى لو يعلمون حقيقة قوّة الله عز وجلّ وشدّة عذابه . فيرى واقعة على أنّ القوّة لله وسدّت سدّ المفعولين . والّذين فاعل : وجواب لو محذوف ، أى تبيّنوا ضرر اتّخاذهم الآلهة كما قال عزّ وجلّ : ولو ترى إذ وقفوا على ربّهم . ولو ترى إذ وقفوا على النّار . ولم يأت للو جواب . قال الزّهرىّ وقتادة : الإضمار أشدّ للوعيد . ومثله قول القائل : لو رأى أى فلانٌ فلاناً والسّياط تأخذه[2] وجاء فى الجلالين : « وجواب لو محذوف . والمعنى : لو علموا فى الدّنيا شدّة عذاب الله وأنّ القدرة لله وحده وقت معاينتهم له وهو يوم القيامة لما اتّخذوا من دونه أندادا » ويقول الزّمخشرىّ[3] : « الّذين ظلموا إشارةٌ إلى متّخذى الأنداد ، أى ولو يعلم هؤلاء الّذين ارتكبوا الظّلم العظيم بشركهم أنّ القدرة كلّها لله على كلّ شىءٍ من العقاب والثّواب دون أندادهم ويعلمون شدّة عقابه للظّالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من النّدم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم فحذف الجواب » ويقول أبو حيّان[4] : « وحذف جواب لو ، لفهم المعنى ، كثيرٌ فى القرآن وفى لسان العرب . قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ﴾ . ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النّار ﴾ ، ﴿ ولو أنّ قرآناً

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٤٠ ، ٤١

(٢) تفسير القرطبى ص ٥٨٤ (٣) الكشّاف ١/٢٤٩

(٤) البحر المحيط ١/٤٧٢

سيّرت به الجبال ﴾ . وقال امرؤ القيس :

وجدّك لو شيءٌ أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا »

ومن قرأ بالتّاء فالتّقدير : ولو ترى يا محمّد الّذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستعظامهم لأقرّوا أنّ القوة لله . فالجواب مضمرٌ على هذا النّحو من المعنى وهو العامل فى أنّ . وتقديرٌ آخر : ولو ترى يا محمّد الّذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أنّ القوّة لله جميعاً . وقد كان النّبىّ ﷺ علم ذلك ولكن خوطب ، والمراد أمّته ، فإنّ فيهم من يحتاج إلى تقوية علمه بمشاهدة مثل هذا[١] .

إذ : دخلت إذ وهى لما مضى فى إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه[٢] فهى بمعنى إذا[٣] .

القوّة : القدرة والغلبة[٤] والقهر والسّلطان[٥] .

جميعاً : الجميع فعيلٌ من الجمع وكأنّه اسم جمع فلذلك يتبع تارةً بالمفرد : نحن جميعٌ منتصر . وتارةً بالجمع : جميعٌ لدينا محضرون . وينتصب حالاً : جاء زيدٌ وعمرو جميعا . ويؤكّد به بمعنى كلّهم . جاء القوم جميعهم ، أى كلّهم . ولا يدلّ على الاجتماع فى الزّمان إنّما يدلّ على الشّمول فى نسبة الفعل[٦] وانتصاب جميعاً على الحال من الضّمير المستكنّ فى العامل فى الجارّ والمجرور[٧] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة العديد من الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وعلى قدرته المطلقة جلّ وعلا ، وعلى الرّغم من كلّ هذه الآيات البيّنة والأدلّة الباهرة فإنّ ثمّة فريقاً من النّاس قد أعمى الله سبحانه وتعالى بصائرهم فهجروا الطّريق الصّحيح طريق الوحدانيّة وأشركوا مع الله تعالى غيره وأطاعوا سادتهم وكبراءهم الّذين أضلّوهم السّبيل الّذى هداهم إليه ودلّهم عليه رسل الله تعالى إليهم . وإلى هذا الفريق من النّاس

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٥
(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٥
(٣) الجلالين
(٤) الجلالين
(٥) تفسير ابن كثير ٢٠٢/١
(٦) البحر المحيط ٤٥٦/١
(٧) البحر المحيط ٤٧٣/١

وإلى مصيره يوم القيامة إلى النّار وبئس القرار تشير الآية الكريمة .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ثمّة فريقاً من النّاس عمى البصائر وزادهم الله تعالى عمىً إلى عماهم من يتّخذ من دون الله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد أنداداً لله سبحانه وتعالى يخلعون عليهم من الصّفات ما لا يصحّ إلاّ لله تعالى ولا يليق إلاّ به جلّ وعلا وحده لا شريك له . ولو فهمنا الأنداد بمعنى الآلهة المزعومة المعبودة من دون الله تعالى لتبيّن أنّ هؤلاء الضالّين قد صرفوا العبادة الّتى لا يستحقّها إلا الله تعالى وحده لا شريك له إلى غيره جلّ وعلا فتورّط القوم فى الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا وهو الإشراك مع الله تعالى سواه . ولو فهمنا الأنداد بمعنى السّادة والكبراء فى المجالين الدّينىّ والدّنيوىّ لتبيّن أنّ هؤلاء الضّالين ، وفى مقدّمتهم اليهود والنّصارى ، قد اتّخذوا سادتهم وكبراءهم ، أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى حيث إنّهم يسمحون لهم بأن يشرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله تعالى بأن يحلّوا ما حرّمه الله تعالى ويحرّموا ما أحلّه الله تعالى . وهذا النّوع من الاتّباع للسّادة والكبراء نوعٌ من عبادتهم ، وبذلك صرف أولئك الّذين اتّبعوا العبادة الّتى لا يستحقها إلا الله تعالى إلى من لا يستحقّها . وقد جاء فى هذا الشّأن قوله تعالى فى سورة التّوبة[1] : ﴿ اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلاّ هو سبحانه عمّا يشركون ﴾ وكما يصحّ أن يتّخذ ذلك الضّالّ معبوده ممّا يعقل يصحّ أن يتّخذه ممّا لا يعقل ويشترك الجميع فى كونهم : ﴿ لا يَخْلقون شيئاً وهم يُخْلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ﴾[2] .

وحينما يراد فى اللّغة باستعمال لفظة النّدّ المماثلة فى جوهر الاختصاص وهذا هو الّذى تورّط فيه الضّالون ، وحينما يجئ فى الآية الكريمة قبل لفظة الأنداد لفظة دون وذلك فى القول : ﴿ ومن النّاس من يتّخذ من دون الله أنداداً ﴾ وكان من متعلّقات لفظة دون

---

(١) الآية ٣١

(٢) سورة الفرقان ٣

انحطاط المكان والرّداءة كما حكى سيبويه ، يكون معنى ذلك أنّ الآية الكريمة قد وضعت الأنداد الّتى أريد لها ما هو خاصٌّ بالله تعالى وحده لا شريك له ، فى المكان الخاصّ واللاّئق بها والّذى لا يصحّ ولا يليق بها أن تتجاوزه .

وأولئك الّذين يشركون مع الله تعالى غيره والّذين يعبدون سواه جلّ وعلا ، على النّحو الّذى بيّنّا ، يحبّون تلك الأنداد حبّاً مثل حبّهم لله تعالى . ونستذكر فى هذا الشّأن مثل قوله تعالى فى سورة الزّمر[1] : ﴿ ألا لله الدّين الخالص . والّذين اتّخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون . إنّ الله لا يهدى من هو كاذبٌ كفّار ﴾ .

وتبيّن الآية الكريمة على الفور خطأ القوم ، وذلك عن طريق تبيين الموقف الآخر الصّحيح الّذى يقفه المؤمنون المتّقون حينما يحبّون الله تعالى وحده لا شريك له ، وحينما يفوق حبّ أولئك المؤمنين المتّقين لله تعالى حبّ أولئك المشركين للأنداد الّتى اتّخذوها من دون الله تعالى . ومن مظاهر شدّة حبّ الّذين آمنوا لله تعالى أنّهم لا يلجأون فى الشدّة والرخاء إلاّ إليه جلّ وعلا ، أمّا المشركون فيلجأون إلى الأنداد فى الرّخاء وحده ، وفى الشّدّة لا يلجأون إلاّ إلى الله تعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر . وممّا جاء فى هذا الشأن قوله تعالى[2] : ﴿ قل أرأيتكُم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة أغَيْرَ الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إيّاه تدعون فيشكف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ .

وإذا كان شقّ الآية الكريمة الأوّل قد بيّن حال الضّالّين متّخذى الأنداد من دون الله تعالى وحكم عليهم فوراً عن طريق تبيين صواب المؤمنين المتّقين شديدى الحبّ لله تعالى فإنّ شقّ الآية الكريمة الثّانى يحكم على أولئك الضّالّين بالعذاب الشّديد يوم القيامة : ﴿ ولو يرى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا وأنّ الله شديد العذاب ﴾ ويصحّ — والله تعالى أعلم — أن يفهم هذا الشّقّ الثّانى على النّحو الآتى : ولو يعلم فى هذه الحياة الدّنيا الّذين ظلموا باتّخاذ الأنداد من دون الله تعالى إذ يرون يوم القيامة العذاب الّذى أعدّ لهم ، وأنّ القوّة جميعها لله تعالى وحده لا شريك له وأنّ الله شديد العذاب

---

(١) الآية ٣

(٢) سورة الأنعام ٤٠ ، ٤١

لكان منهم الحسرة الشّديدة والنّدم الأكيد على اتّخاذ الأنداد من دون الله تعالى ولما اتّخذوا من دون الله تعالى أنداداً أصلاً فضلاً عن حبّهم لتلك الأنداد أو حبّهم لها حبّاً كحبّ الله تعالى . « ولم يأت للو جواب . قال الزّهريّ وقتادة : الإضمار أشدّ للوعيد »(١).

ومن قرأ بالتّاء فالتّقدير : ولو ترى يا محمّد الّذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستعظامهم لأقرّوا أنّ القوّة لله . وتقديرٌ آخر : ولو ترى يا محمد الّذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أنّ القوّة لله جميعا(٢) فى الصّحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله : أىّ الذّنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك(٣).

الآيــة رقــم (١٦٦)

قال تعالى : ﴿ إذ تبرّأ الّذين اتُّبِعوا من الّذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب ﴾ .

إذ تبرّأ : بدل من إذ يرون العذاب(٤) .

تبرّأ : تفعّل من قولهم : برئت من الدّين براءةً وهو الخلوص والانفصال والبعد(٥) .

الّذين اتّبعوا : هم رؤساؤهم وقادتهم الّذين اتّبعوهم فى أقوالهم وأفعالهم . قاله ابن عبّاس وعطاء وأبو العالية وقتادة والرّبيع ومقاتل والزّجّاج ..... أو عامّ فى كلّ متبوع ، وهو الّذى يدلّ عليه ظاهر اللّفظ(٦) وقراءة الجمهور اتّبعوا الأوّل مبنيّاً للمفعول والثّانى مبنياً للفاعل(٧) .

ورأوا العذاب : الظّاهر أنّ هذه الجملة هى وما بعدها قد عطفت على تبرّأ فهما

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٤ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٥

(٣) تفسير ابن كثير ١/٢٠٢

(٤) الكشّاف ١/٢٤٩ والبحر المحيط ١/٤٧٣

(٥) البحر المحيط ١/٤٥٦ (٦) البحر المحيط ١/٤٧٣

(٧) البحر المحيط ١/٤٧٣ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٨٥ وتفسير الطّبرىّ ١/٤٢

داخلان فى حيّز الظّرف . وقيل : الواو للحال فيهما ، والعامل تبرّأ أى تبرّءوا فى حال رؤيتهم العذاب وتقطّع الأسباب بهم ، لأنّها حالةٌ يزداد فيها الخوف والتّنصّل ممّن كان سببًا فى العذاب(١) .

وتقطعت بهم الأسباب : أى الوُصُلات الّتى كانوا يتواصلون بها فى الدّنيا من رحمٍ وغيره . الواحد سبب ووُصلة(٢) . وأصله الحبل يشدّ بالشّىء فيجذبه ثمّ جعل كلّ ما جرّ شيئاً سبباً(٣) عن ابن عبّاس : الأسباب : قال : المودّة(٤) والسَّبب : الحبل . والأسباب جمع سبب وهو كلّ ما تسبّب به الرّجل إلى طِلْبته وحاجته فيقال للحبل سبب لأنّه يتسبّب بالتّعلّق به إلى الحاجة الّتى لا يوصل إليها إلاّ بالتّعلّق به . ويقال للطّريق سبب للتّسبّب بركوبه إلى ما لا يدرك إلاّ بقطعه . وللمصاهرة سبب لأنّها سببٌ للحرمة . وللوسيلة سبب للوصول بها إلى الحاجة . وكذلك كلّ ما كان به إدراك الطّلبة فهو سببٌ لإدراكها(٥) .

بما أنّ القول : ﴿ إذ تبرأ الّذين اتبعوا ﴾ بدل من القول : ﴿ إذ يرون العذاب ﴾ ، فعليه يكون المعنى — والله تعالى أعلم — ولو يرى الّذين ظلموا فى هذه الحياة الدّنيا العذاب الّذى أعدّ لهم يوم القيامة إذ يرون العذاب فى ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود إذ تبرّأ الّذين اتُّبعوا بأن عُبدوا من دون الله تعالى أو أطيعوا فى معصية الله تعالى بتحريم ما أحل الله تعالى وبتحليل ما حرّم الله تعالى من الّذين اتّبعوا أولئك المعبودين من دون الله تعالى أو المطاعين فى معصية الله تعالى ، ومن أولئك المعبودين الرّاضين عن صرف العبادة عن الله تعالى إليهم الشّياطينُ وطواغيتُ الإنس والجنّ ، ومن أولئك المطاعين فى معصية الله تعالى الأحبار والرّهبان الّذين يأكلون أموال الناس بالباطل والّذين يصبدوّن عن سبيل الله تعالى وأهل الكتاب الّذين تشملهم هذه الآية الكريمة(٦) : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا

---

(١) البحر المحيط ١/٤٧٣

(٢) الوصلة ، بضمّ الواو وسكون الصّاد ، هى ما يتصل بين الشّيئين .

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٦

(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/٤٣ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٣

(٥) تفسير الطّبرى ٢/٤٣

(٦) سورة آل عمران ١٨٧

الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ويلحق برجال الدّين هؤلاء الّذين آثروا الحياة الدّنيا الفانية على الآجلة الباقية كافّة السّادة والكبراء والمتبوعين الّذين أضلّوا التّابعين السّبيل . وإنّ جواب لو محذوفٌ كما عرفنا .

إنّ كلاً من المتبوعين والتّابعين يتبرّأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً إذا رأى العذاب الّذى أعدّه الله تعالى لكلٍّ من الفريقين يوم القيامة وتقطّعت بين المتبوعين والتّابعين العلاقات الّتى كانت بينهم فى الحياة الدّنيا والأسباب الّتى كانت تتّخذ لوصول كلٍّ من الفريقين إلى غاياتهم الرّخيصة من مودّةٍ ورحمٍ ومصالح متبادلة ومنافع متوخّاه . ويلاحظ مجيء حرف الجرّ الباء وليس الظرف بين مثلاً وذلك فى القول : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ إنّ كلّ الأسباب والوسائل والوُصُلات الّتى اعتمد عليها من دون الله تعالى كلّ من الفريقين قد تقطّعت بهم ، فانفصمت العلاقة بين الفريقين لانقطاع أسبابها وزوال موجباتها . بل إنّ كلاً من الفريقين قد انقلب ضدّاً للفريق الآخر وتحوّلت المودّة فى الحياة الدّنيا عداوةً فى الآخرة ، وثبت لكلٍّ من الفريقين أنّ الفريق الآخر هو عدوّه اللّدود فى الحياة الدّنيا .

وما أكثر الآيات الكريمات الّتى بيّنت أبعاد العداوة يوم القيامة بين الّذين اتّبعوا والّذين اتّبعوا . جاء فى تبرّؤ الشّيطان الرّجيم من الّذين استجابوا لدعوته قوله تعالى[1] : ﴿ وقال الشّيطان لمّا قُضِى الأمر إنّ الله وعدكم وعْدَ الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطانٍ إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنّى كفرت بما أشركتمون من قبل . إنّ الظّالمين لهم عذابٌ أليم ﴾ وجاء فى تبرؤ الفريقين من بعضهما قوله تعالى[2] : ﴿ قال ادخلوا فى أممٍ قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس فى النّار ، كلّما دخلت أمّةٌ لعنت أختها حتّى إذا إدّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار . قال

---

(١) سورة إبراهيم ٢٢

(٢) سورة الأعراف ٣٨ ؛ ٣٩

لكلٍّ ضعفٌ ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ وقوله تعالى[١] : ﴿ وقال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالّذى بين يديه . ولو ترى إذ الظّالمون موقوفون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول يقول الّذين استُضْعِفوا للّذين استكبروا لولا أنتم لكنّا مؤمنين . قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهُدَى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الّذين استُضْعِفوا للّذين استكبروا بل مكر اللّيل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونَجْعَلَ له أندادا . وأسرّوا النّدامة لمّا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الّذين كفروا . هل يُجْزَوْن إلاّ ما كانوا يعملون ﴾ وإلى كفر بعض الظّالمين ببعض ولعن بعضهم بعضاً أشار قوله تعالى[٢] : ﴿ وقال إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم فى الحياة الدّنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النّار وما لكم من ناصرين ﴾ وقال تعالى[٣] : ﴿ واتّخذوا من دون الله آلهةً ليكونوا لهم عزّا . كلاّ . سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّا ﴾ وقال تعالى[٤] : ﴿ ومن أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حُشِر النّاس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . إلى غير ذلك من آيات كريمات .

وإلى جمال نظم الآية الكريمة يقول أبو حيان[٥] : « وفى هذه الجمل من أنواع البديع نوعٌ يُسمّى التّرصيع ، وهو أن يكون الكلام مسجوعاً كقوله تعالى : ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ﴾ . وهو فى القرآن كثير . وهو فى هذه الآية فى موضعين . أحدهما : إذ تبرّأ الّذين اتُّبِعوا من الّذين اتّبعوا . وهو محسّن الحذف لضمير الموصول فى قوله : اتّبعوا إذ لو جاء اتّبعوهم لفات هذا النّوع من البديع . والموضع الثّانى : ورَأوا العذاب وتقطّعت

---

(١) سورة سبأ ٣١ — ٣٣
(٢) سورة العنكبوت ٢٥
(٣) سورة مريم ٨١ ، ٨٢
(٤) سورة الأحقاف ٥ ، ٦
(٥) البحر المحيط ١/٤٧٣ .

بهم الأسباب . ومثال ذلك فى الشّعر قول أبى الطيّب .

فى تاجه قمرٌ فى ثوبه بشر[١] فى درعه أسدٌ تدمى أظافره »

وإنّ الآية الكريمة التّالية امتدادٌ للنّزاع بين الفريقين والعداوة بينهما .

الآيــة رقــم (١٦٧)

قال تعالى : ﴿ وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النّار ﴾ .

لو : فى معنى التّمنّى ولذلك أجيب بالفاء الّذى يجاب به التّمنّى[٢] .

الكرّة : العودة إلى الحالة الّتى كان فيها . والفعل كرّ يكرّ كرّاً . قال الشّاعر :

أكرّ على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها[٣]

ويَعْنِى بالكرّة الرّجعة إلى الدّنيا[٤] أى قال الأتباع : لو رُدِدْنا إلى الدّنيا حتّى نعمل صالحاً ونتبرّأ منهم كما تبرّءوا منّا[٥] .

والكاف فى كما فى موضع نصب . إمّا نعتاً لمصدر محذوف والتّقدير : تبرّؤًا مثل تبرّؤهم ، أو على الحال من ضمير المصدر المحذوف والتّقدير فنتبرّأه أى فنتبرّأ التّبرّؤ مشابهاً لتبرّؤهم . وما فى كما مصدريّة[٦] .

كذلك : الظّاهر أنّ الكاف على بابها من التّشبيه وأنّ التّقدير مثل إراءتهم تلك الأهوال يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم فيكون نعتاً لمصدرٍ محذوف فيكون فى موضع نصب[٧] ويقول القرطبىّ[٨] : « كذلك الكاف فى موضع رفع ، أى الأمر كذلك . أى كما أراهم

---

(١) رواية الدّيوان ١/١١٩ : « قد حِزْن فى بشرٍ فى تاجه قمر » .

(٢) الكشّاف ١/٢٤٩

(٣) البحر المحيط ١/٤٥٦ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٤٤

(٤) تفسير الطبرى ٢/٤٤ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٣

(٥) تفسير القرطبى ص ٥٨٦

(٦) انظر البحر المحيط ١/٤٧٤

(٧) البحر المحيط ١/٤٧٤

(٨) تفسير القرطبى ص ٥٨٦

الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم » وجاء فى الجلالين : « أى كما أراهم شدة عذابه وتبرّأ بعضهم من بعض ، يريهم الله أعمالهم السّيّئة » .

يريهم : جوّزوا فى يريهم أن تكون بصريّة عدّيت بالهمزة فتكون حسراتٍ منصوباً على الحال ، وأن تكون قلبيّة فتكون مفعولاً ثالثاً[١]

أعمالهم : قال الرّبيع : أى الأعمال الفاسدة الّتى ارتكبوها فوجبت لهم بها النّار . وقال ابن مسعود والسّدّىّ : الأعمال الصّالحة الّتي تركوها ففاتتهم الجنّة . ورُوِيت فى هذا القول أحاديث[٢] .

حَسَراتٍ عليهم : الحسرة واحدة الحسرات كتمرة وتمرات وجفنة وجفنات وشهوة وشهوات[٣] والحسرة على درجات النّدامة على شيءٍ فائت[٤] وتألّم القلب بانحساره عن مأموله[٥] وعلى تشعر بأنّ الحسرات مستعليةٌ عليهم[٦] .

وما هم بخارجين من النّار : دليلٌ على خلود الكفّار فيها وأنّهم لا يخرجون منها . وهذا قول جماعة أهل السّنّة ، لهذه الآية ولقوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل فى سَمِّ الخياط ﴾[٧] وجاء الخبر مصحوباً بالباء الدّالّة على التّوكيد[٨] .

بيّنت الآية الكريمة السّابقة أنّ المتبوعين يتبرّأون يوم القيامة من التّابعين لهم ويتنصّلون من تبعات ذلك الاتّباع فى وقتٍ يرى فيه كلٌّ من الفريقين العذاب الّذى أعدّه الله تعالى له وتتقطّع فيه كلّ أنواع العلائق فى الدّنيا بينهما من رحمٍ ومودّة ونفعٍ وما إلى ذلك . وهذه الآية الكريمة التّالية تبيّن ردّ الفعل المعاكس لدى التّابعين تجاه تبرّؤ المتبوعين منهم . إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ الّذين اتّبعوا قالوا ، هكذا فى صيغة الزّمن الماضى لتحقّق

---

(١) البحر المحيط ١/٤٧٥ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٨٦

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٦ وتفسير الطّبرىّ ٢/٤٤ ، ٤٥

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٧ وتفسير الطّبرىّ ٢/٤٤

(٤) البحر المحيط ١/٤٥٦

(٥) البحر المحيط ١/٤٧٥

(٦) البحر المحيط ١/٤٧٥

وقوع ذلك القول يوم القيامة ، قالوا فى صيغة التّمنّى : لو أنّ لنا نحن التّابعين الّذين تبيّن لنا سوء صنيعنا فى الحياة الدّنيا وخطؤنا الشّنيع فى حقّ أنفسنا حينما انصرفنا عن الله تعالى إلى اتّباع المخلوقين أمثالنا الّذين لا يملكون لأنفسهم فكيف يملكون لنا أو لغيرنا نفعاً أو ضرّاً والّذين تبرّءوا منّا فى هذا اليوم المجموع له النّاس المشهود ، لو أنّ لنا نحن التّابعين كرّةً أخرى وعودةً ثانيةً إلى الحياة الدّنيا فنتبرّأ من المتبوعين كما تبرّءوا منّا ونقطع كلّ علاقةٍ بيننا وبينهم ونتّجه إلى الله تعالى نعبده جلّ وعلا وحده لا شريك له . وبطبيعة الحال لا ينفع يوم القيامة النّدم ولا التّمنى لأنّه يوم الجزاء ولأنّ الحياة الدّنيا هى دار العمل .

وكما أرى الله سبحانه وتعالى المتبوعين والتّابعين العذاب يوم القيامة وقد قال تعالى : ﴿ ورأو العذاب ﴾ يُرِى جلّ وعلا الفريقين أعمالهم الّتى عملوها فى الحياة الدّنيا حسراتٍ عليهم يوم القيامة وندامات تلفّهم وتشملهم . ووراء ذلك هم ليسوا بخارجين من النّار أى مخلّدين فيها .

وأعمال الفريقين لا تخلو من أن تكون سيّئةً أو حسنةً بمقياس الإسلام . أمّا الأعمال السّيّئة فأصحابها عالمون بسوئها وباستحقاقهم العقاب عليها . وأمّا الأعمال الحسنة فبما أنّهم لا يريدون بها وجه الله تعالى إنّما أرادوا بها حسن الأحدوثة وطيّب الذّكر فإنّها وإن كانت ممّا حثّ عليه الإسلام من صلة رحم وإغاثة ملهوف وحسن جوار وما إلى ذلك قد جعلها الله سبحانه وتعالى هباءً منثوراً لأنّهم ارتكبوا الذّنب الّذى لا يغفره جلّ وعلا وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه . قال تعالى[1] : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ وقال تعالى[2] : ﴿ وقَدِمْنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾ .

وهذه الجزئيّة الكريمة : ﴿ وما هم بخارجين من النّار ﴾ تأخذ بسبب من قوله تعالى[3] : ﴿ إن الّذين كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفَتّح لهم أبوابُ السّماء

---

(١) سورة النساء ١١٦ (٢) سورة الفرقان ٢٣

(٣) سورة الأعراف ٤٠ ، ٤١

ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل فى سَمّ الخياط . وكذلك نجزى المجرمين . لهم من جهنّم مهادٌ ومن فوقهم غواش . وكذلك نجزى الظّالمين ﴾ .

الآيـة رقـم (١٦٨)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس كلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيّباً ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين ﴾ .

حلالاً : حال وقيل مفعول كلوا [١] والحلال مقابل الحرام ومقابل المحرم . يقال : شيءٌ حلالٌ أى سائغ الانتفاع به . وشيءٌ حرام ممنوع منه . ورجلٌ حلال أى ليس بمحرم . قيل : وسمّى حلالاً لانحلال عقد المنع منه . والفعل منه : حلّ يَحِلُّ بكسر الحاء فى المضارع[٢] وقال ابن عبّاس : الحلال الّذى لا تبعة فيه فى الدّنيا ولا وبال فى الآخرة[٣].

طيّبا : طاهراً غير نجسٍ ولا محرّم[٤] وقال الشافعىّ : الطيّب المستلذّ ، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر[٥] والثابت فى اللّغة أنّ الطّيّب هو الطّاهر من الدّنس . قال :

والطّيّبون معا قد الأُزرِ[٦]

وطيّباً : مستطاباً فى نفسه غير ضارّ للأبدان ولا للعقول[٧] .

خطوات : جمع خَطْوة وخُطوة بمعنًى واحد . قال الفرّاء : خطوات جمع خطوة بالفتح . وخطوة بالضمّ : ما بين القدمين . وقال الجوهرىّ : وجمع القلّة خَطْوات وخُطُوات وخَطَوات ، والكثير خُطًا . والخطوة بالفتح المرّة الواحدة[٨] قال

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٧ وانظر الكشّاف ٢٤٩/١ والبحر المحيط ٤٧٨/١

(٢) البحر المحيط ٤٧٧/١ (٣) البحر المحيط ٤٧٩/١

(٤) تفسير الطّبرى ٤٦/٢ (٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٧

(٦) البحر المحيط ٤٧٩/١ (٧) تفسير ابن كثير ٢٠٣/١

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٧ وانظر البحر المحيط ٤٧٧/١

عبّاس : خطواته أعماله[١] وعن مجاهد : خطاياه[٢] وذكر خطواته كأنّهم يقتفون آثاره ويطأون عقبه ، فكلّما خطا خطوةً وضعوا أقدامهم عليها وذلك مبالغة فى اتّباعه[٣] .

قرّر السّياق أنّ الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحقّ وحده لا شريك له ، ثمّ قدّم العديد من الأدلّة الدّالّة على قدرة هذا الإلٰه الواحد المعبود وعلى وحدانيّته ، وبيّن السّياق بعد أنّه بالرّغم من كلّ هذه الأدلّة فإنّ من النّاس من يتّخذ من دون الله تعالى أنداداً يحبّونهم كحبّ الله بينما المؤمنون أشدّ حبّاً لله تعالى ويبيّن السّياق العاقبة الوخيمة الّتى سينتهى إليها حتماً المعبودون من دون الله تعالى والعابدون حينما يتبرّأ كلٌّ من المتبوعين والتّابعين يوم القيامة من الفريق الآخر وحينما يرون العذاب ويخلدون فى النّار وبئس القرار ، والآية الكريمة التى نحن بصددها تبيّن فضل الله تعالى على عباده فى هذه الحياة الدّنيا حينما يرزق جلّ وعلا العباد جميعهم مؤمنهم وكافرهم ، ولهذا كان فى الآية الكريمة خطابٌ لكلّ النّاس : ﴿ يا أيّها النّاس ﴾ .

وإنّ رزق الله تعالى النّاس ، كلّ النّاس ، مؤمنهم وكافرهم دليلٌ على هوان هذه الدّنيا على الله تعالى وإلاّ لما سقى الكافر فيها شربة ماء . وحينما يرزق الله المؤمن فبقصد أن يشكر له جلّ وعلا على نعمه وآلائه فبالشّكر تدوم النّعم وتزداد . وحينما يرزق الله غير المؤمن فبقصد أن يرعوى إلى طريق الهداية والرّشد وإلاّ فإنّ أخذ الله تعالى الظّالم أليمٌ شديد .

والآية الكريمة تأمر النّاس أمر ندبٍ واستحباب أن يأكلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيباً . والمراد بالحلال عكس الحرام ، وهو ما أحلّه الله تعالى لعباده على لسان رسوله المصطفى ﷺ وبفضل الله تعالى قد عيّن الشّارع الحكيم ما حرّم على الطّاعم أن يطعمه ، وبفضل الله تعالى نسبة المحرّم أكله إلى الحلال أكله قليلةٌ جدّاً ، هذا إلى أنّ المحرّم أكله هو الخبائث وأنّ الحلال أكله هو الطيبّات ، ولهذا جمعت الآية الكريمة فى بيان الطّعام

---

(١) البحر المحيط ١/٤٧٩ وتفسير القرطبيّ ص ٥٨٨ وتفسير الطبرىّ ٢/٤٦

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٨ وتفسير الطّبرىّ ٢/٤٦

(٣) البحر المحيط ١/٤٩٦

بين الحِلّ والطّيب . وسبق أن عرفنا الطيّب بأنّه المستلذّ المستطاب فى نفسه غير الضّارّ للأبدان ولا للعقول .

وأردف الأمر بأكل الحلال الطيّب بالنّهى عن اتّباع خطوات الشيطان العدوّ للإنسان البيّن العداوة له . إنّ الشّيطان عدوٌّ للإنسان وقد أظهر العداوة لآدم عليه السلام أبى البشر ولذرّيته عليه السّلام إلى يوم الدّين ، وقد بيّن القرآن والسّنّة المطهّرة عداوة الشّيطان للإنسان وحذّرا من اتّباع خطوات الرّجيم ومن اتّخاذه هو وذرّيته أولياء من دون الله تعالى . وفى هذه الآية الكريمة نهىٌ عن اتّباع خطوات الشّيطان وعن السّير فى طرق المعاصى والضّلال الّتى يذلّلها للعباد ويعبّدها لهم ويزيّنها . وياله من مصيرٍ سيّئ ينتظر أولئك الّذين يتّخذون من الشّيطان الرّجيم قائداً لهم وإماماً ، والّذين يقتفون أثره ويتّبعون خطاه . وفى هذه الآية الكريمة كذلك تقريرٌ لعداوة الشّيطان الرّجيم البيّنة لجنس الإنسان ، فعلى النّاس جميعاً أن يعوا هذه الدّروس القرآنيّة جيّداً ، وعلى من كان بفضل الله تعالى سائراً فى طريق الهدى والفلاح أن يحمد الله تعالى على نعمه وآلائه وأن يستزيده منها ... وعلى من كان سائراً فى غير طريق الهدى والفلاح أن يتحوّل مستعيناً بالله تعالى إلى الطّريق القويم والصّراط المستقيم متنكّبًا طريق الغىّ والضّلال الّذى يسير فيه الشّيطان الرّجيم ويدعو إليه ويغرى به . وإنّ من وسائل الشّيطان الرّجيم الإغراء بأكل ما ليس حلالاً ولا طيّباً ممّا فيه فساد المعتقد والجسد والعقل والمال والأهل والولد . وإنّ من وسائل اللّعين كذلك تحريم ما أحل الله تعالى ، وذلك على غرار تحريم : « البحائر والسّوائب والوصائل ونحوها ممّا كان زينةً لهم فى جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمّاد الّذى فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنّه قال : يقول الله تعالى : إنّ كلّ مالٍ منحته عبادى فهو لهم حلال ــ وفيه ــ وإنّى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشّياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم .... عن ابن عبّاس قال : تُلِيَتْ هذه الآية عند النّبىّ ﷺ : ﴿ يا أيّها النّاس كلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيّباً ﴾ . فقام سعد ابن أبى وقّاص فقال : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدّعوة فقال : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة ، والّذى نفس محمّدٍ بيده إنّ الرّجل ليقذف اللّقمة

الحرام فى جوفه ما يتقبّل منه أربعين يوماً ، وأيّما عبدٍ نبت لحمه من السّحت والرّبا فالنّار أولى به »[١] وفى الآية الكريمة ثانى نداءٍ وقع فى سورة البقرة بقوله : يا أيّها النّاس[٢] .

الآيــة رقــم (١٦٩)

قال تعالى : ﴿ إنّما يأمركم بالسّوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

إنّما يأمركم بالسّوء : بالأفعال السّيّئة[٣] والإثم[٤] والقبيح[٥] وسمّى السّوء سوءً لأنّه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساء يسوء سواً ومساءةً إذا أحزنه . وسؤته فسىء إذا أحزنته فحزن . قال الله تعالى : سيئت وجوه الّذين كفروا[٦] .

والفحشاء : مصدر كالبأساء ، وهو فعلاء من الفحش وهو قبح المنظر . ومنه قول امرئ القيس :

وجيدٍ كجيد الرّيم ليس بفاحشٍ إذا هى نصّته ولا بمعطّل

ثمّ توسّع فيه حتّى صار يستعمل فيما يستقبح من المعانى[٧] والشّرع هو الّذى يحسّن ويقبّح . فكلّ ما نهت عنه الشّريعة فهو من الفحشاء[٨] وقال مقاتل : أنّ كلّ ما فى القرآن من ذكر الفحشاء فإنّه الزّنا إلاّ قوله : ﴿ الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ ، فإنّه منع الزّكاة .

قلت : فعلى هذا قيل : السّوء ما لا حدّ فيه . والفحشاء ما فيه حدّ . وحُكِى عن ابن عبّاسٍ وغيره . والله تعالى أعلم[٩] .

نهت الآية الكريمة السّابقة عن اتّباع خطوات الشّيطان وحذّرت من عداوته البيّنة للإنسان . وفى هذه الآية الكريمة التّالية تبينٌ لأبعاد عداوة الشّيطان الرّجيم للإنسان . إنّها

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٠٣
(٢) البحر المحيط ١/٤٧٨
(٣) تفسير ابن كثير ١/٢٠٤
(٤) الجلالين وتفسير الطّبرىّ ٢/٤٦
(٥) الكشّاف ١/٢٤٩
(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٩
(٧) البحر المحيط ١/٤٧٧
(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٩
(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٨٩ وانظر الكشّاف ١/٢٥٠ والبحر المحيط ١/٤٨٠

تبدأ بما يفيد الحصر « إنّما » وبجملة « يأمر » الّتى ليس وراءها وراءٌ فى الدّلالة على التّصميم الأكيد والثّقة فى القدرة على التّضليل الّتي ليس عليها من مزيد . وحينما يأمر بكلّ شرّ هو ينهى عن كلّ خير . والآية تنصّ على ثلاثةٍ من أوامر اللّعين تتدرّج من السّيّئ إلى الأسوأ . وهذه الأوامر تبدأ بالسّوء . والمراد ما يسوء الإنسان بسوء عواقبه من قولٍ أو فعل . وإذا صحّ أنّ السّوء من القول أو الفعل هو ما لا حدّ فيه ، فإنّ ما يأمر به اللّعين بعد ذلك فيه حدّ ، ألا وهو الفحشاء ، وإذا كان معنى الفحشاء ما يقبح من المعانى شرعاً ، فإنّ من مظاهر الفحشاء ارتكاب جريمة الزّنا وقد وصف القرآن الكريم الزّنا بأنّه كان فاحشةً وساء سبيلا . وليس بخافٍ ما يرتبط بارتكاب هذه الجريمة من فساد النّسب الّذى يترتّب عليه فساد الأسرة فالمجتمع فالأمّة . وقس على ذلك سائر الفواحش الّتى يأمر بها اللّعين ، ما ظهر منها وما بطن .

ويتجاوز اللّعين الأمر بالسّوء والفحشاء إلى أمر النّاس بأن يقولوا على الله تعالى ما لا يعلمون ، بأن يحلّوا ما حرّم الله تعالى أو يحرّموا ما أحلّ الله تعالى وبأن يشرعوا من الدّين ما لم يأذن به الله جلّ وعلا « فيدخل فى هذا كلّ كافرٍ وكلّ مبتدعٍ أيضاً »[1] يقول الطّبرىّ[2] : « وأمّا قوله : ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ، فهو ما كانوا يحرّمون من البحائر والسّوائب والوصائل والحوامى ويزعمون أنّ الله حرّم ذلك فقال تعالى ذكره لهم : ﴿ ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حامٍ ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ وأخبرهم تعالى ذكره فى هذه الآية أنّ قيلهم إنّ الله حرّم هذا من الكذب الّذى يأمرهم به الشّيطان وأنّه قد أحلّه لهم وطيّبه ولم يحرّم أكله عليهم ولكنّهم يقولون على الله ما لا يعلمون حقيقته ، طاعةً منهم للشّيطان واتّباعاً منهم خطواته واقتفاءً منهم آثار أسلافهم الضّلّال وآبائهم الجهّال » .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٤٠٤ . (٢) تفسير الطّبرىّ ٣/٤٦

الآيــة رقــم (١٧٠)

قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا . أَوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ .

وإذا : المراد بقوله : ،إذا : التّكرار[١] .

وإذا قيل لهم : الضّمير فى لهم عائدٌ على كفّار العرب لأنّ هذا كان وصفهم وهو الاقتداء بآبائهم ، ولذلك قالوا لأبى طالب حين احتضر : أترغب عن ملّة عبد المطّلب ؟ ذكّروه بدين أبيه ومذهبه . وقال ابن عبّاس : نزلت فى اليهود . فعلى هذا يكون الضّمير عائداً على غير مذكور ، وهم أشدّ النّاس اتّباعاً لأسلافهم[٢] عن محمّد بن إسحاق عن محمّد بن أبى محمّد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال : دعا رسول الله ﷺ اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغّبهم فيه وحذّرهم عقاب الله ونقمته فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا . فإنّهم كانوا أعلم وخيراً منّا ، فأنزل الله من قولهم ذلك : ﴿ وإذا قيل لهم ... ﴾ الآية[٣]

اتّبعوا ما أنزل الله : أى بالقبول والعمل[٤] .

بل نتّبع : بل هنا عاطفة جملة على جملة محذوفة . التّقدير : لا نتّبع ما أنزل الله بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا . ولا يجوز أن يعطف على قوله : ﴿ اتّبعوا ما أنزل الله ﴾[٥] .

ما ألفينا عليه آباءنا : ألفينا بمعنى وجدنا بدليل قوله : ﴿ بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾[٦] وليست هنا متعدّية إلى اثنين لأنّها بمعنى وجد الّتى بمعنى أصاب[٧] .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٨٠ (٢) البحر المحيط ١/٤٨٠

(٣) تفسير الطّبرىّ ٢/٤٧ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٤ وانظر تفسير القرطبىّ ص ٥٩٠ ورأى الطّبرىّ فى عودة الضّمير إلى النّاس من قوله تعالى : ﴿ يا أيّها النّاس كلوا ﴾ تفسير الطبرىّ ٢/٤٧

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٠ (٥) البحر المحيط ١/٤٨٠

(٦) الكشّاف ١/٢٥٠ وانظر الطّبرىّ ٢/٤٧ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٤ وتفسير القرطبىّ ص ٥٩٠

(٧) البحر المحيط ١/٤٨٠

أو لو كان آباؤهم : الهمزة للاستفهام المصحوب بالتّوبيخ والإنكار والتّعجّب من حالهم[١] والواو للحال[٢] ويقول القرطبيّ[٣] : « وفتحت الواو لأنّها واو عطف . عطفت جملة كلام على جملة ، لأنّ غاية الفساد فى الالتزام أن يقولوا : نتّبع آباءنا ولو كانوا لا يعقلون . فقُرّروا على التزامهم هذا إذ هى حال آبائهم » والمعنى[٤] : « أيتّبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من الدّين ولا يهتدون للصّواب » ويقول أبو حيّان[٥] : « والمعنى ، والله أعلم ، إنكار اتّباع آبائهم فى كلّ حال حتّى فى الحالة الّتى لا تناسب أن يتّبعوا فيها وهى تلبّسهم بعدم العقل وعدم الهداية . ولذلك لا يجوز حذف هذه الواو الدّاخلة على لو إذا كانت تنبيهًا على أنّ ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها » .

إنّه على الرّغم من تقديم الأدلّة المقنعة لكلّ ذى عقلٍ ناضج وقلبٍ سليم وبصيرةٍ نيّرة على أن الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحقّ وحده لا شريك له ، وعلى الرّغم من التّحذير من اتّباع خطوات الشّيطان الرّجيم البيّن العداوة للإنسان ، فإنّ من النّاس من يتّخذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله تعالى ، ومن هؤلاء اليهود والنّصارى الّذين اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى ، ومن هؤلاء مشركو العرب . وإنّ الآية الكريمة لتقرّر أن النّبىّ ﷺ والمؤمنين إذا قالوا لأولئك الّذين انحرفوا عن جادّة الصّواب وتنكّبوا الصّراط المستقيم اتّبعوا ما أنزل الله تعالى على حبيبه المصطفى ﷺ من قرآنٍ مجيد يهدى إلى الطّريقة الّتى هى أقوم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وسنّة مطهّرةٍ مبيّنةٍ للقرآن الكريم أوحى الله تعالى بها لحبيبه ﷺ كان من أولئك جوابٌ لا أدلّ منه على تعطيلهم عقولهم وعلى ضلالهم . إنّ جواب القوم : ﴿ بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ والمعنى لا نتّبع ما أنزل الله تعالى بل نتّبع ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من عبادةٍ للأصنام والأوثان واتّباعٍ للأحبار والرّهبان والسّادة والكبراء : ونتذكّر بهذه المناسبة مثل قوله

---

(١) البحر المحيط ١/٤٨٠ (٢) الكشّاف ١/٢٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٠ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١/٩٨

(٤) الكشّاف ١/٢٥٠ (٥) البحر المحيط ١/٤٨١

تعالى[1] : ﴿ وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرّحمن إناثا . أشهدوا خلقهم . ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرّحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلاّ يخرصون . أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قريةٍ من نذيرٍ إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ .

والآية الكريمة تردّ فوراً على أولئك الّذين عطّلوا تمام التّعطيل نعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليهم والّذين أَلِفوا ظلمات الضّلال للدّرجة الّتى أمست معها بمثابة المناعة للقوم من أىّ بصيصٍ لنورِ الهداية يمكن أن يتسلّل إلى أعماقهم : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أيتّبعون ما ألفَوْا عليه آباءهم فى كلّ الأحوال على الإطلاق ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً من أمور الدّين والدّنيا ولا يهتدون إلى حقّ أو صواب . أيتّبعون آباءهم فى كلّ الأحوال بما فى ذلك الحال الّتى لا تخفى حقيقتها على من لديه أدنى مُسْكةٍ من عقل والّتى يثبت معها أنّ الآباء بمنزلة من لا عقل له يميّز به بين الخطأ والصّواب وبمنزلة من لا بصيرة نيّرة له تبيّن له طريق الهدى الّذى ينبغى أن يتّبع وطريق الضّلال الّذى ينبغى أن يهجر . إنّ هذه هى حال الآباء الّذين يدعون الأصنام ويذرون أحسن الخالقين الله تعالى الّذى له وحده لا شريك له الخلق والأمر . هل يليق بمن أنعم الله تعالى عليهم بنعمة العقل وبموهبة القدرة على التّمييز بين الخطأ والصّواب أن يعطّلوا تلك النّعم ويلغوها من الوجود بحجّة اتّباعهم لآبائهم وأجدادهم ؟ هل يليق بالاتّباع أن يكون أعمى إلى أن يلقى بالتّابع فى الهاوية ؟ هل يليق بالعاقل أن يتّبع من لا عقل له ؟ هل يليق بالقادر على التّمييز أن يتّبع غير القادر على التّمييز ؟ هل يليق بالأبناء أن يتّبعوا آباءهم الذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ لا .

وإنّ المَثَل فى الآية الكريمة التّالية يبيّن حال الّذين يدعوهم المصطفى ﷺ إلى الهدى

---

(١) سورة الزّخرف ١٩ ــ ٢٥

بينما هم يتّبعون آباءهم الّذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون فيعطّلون نعمة العقل والقدرة على التّمييز بين الخطأ والصّواب فرضوا لأنفسهم أن ينزّلوا منزلة الأنعام بل هم أضلّ لأنّهم هم الغافلون الّذين جعلوا الضّالين المضلّين يقودونهم إلى جهنّم وبئس المصير . وينبغى أن نعرف فى المقابل أنّ الاتّباع فى الحق والتّقليد فيه أصلٌ من أصول الدّين . يقول القرطبىّ[١] : « تعلّق قومٌ بهذه الآية فى ذمّ التّقليد لذمّ الله تعالى الكفّار باتّباعهم لآبائهم فى الباطل واقتدائهم بهم فى الكفر والمعصية . وهذا فى الباطل صحيح . أمّا التّقليد فى الحقّ فأصلٌ من أصول الدّين وعِصْمةٌ من عِصَم المسلمين يلجأ إليها الجاهل المقصّر عن درك النّظر .... وهو فى اللّغة مأخوذٌ من قلادة البعير فإنّ العرب تقول : قلّدت البعير إذا جعلت فى عنقه حبلاً يقاد به . فكأنّ المقلّد يجعل أمره كلّه لمن يقوده حيث شاء .... التّقليد ليس طريقاً للعلم ولا موصلاً له لا فى الأصول ولا فى الفروع . وهو قول جمهور العقلاء والعلماء » .

الآيــة رقــم (١٧١)

قال تعالى : ﴿ ومَثَلُ الّذين كفروا كمثل الّذى يَنْعِق بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ .

ومثل : وصفة[٢] .

ينعق : يصوّت بالغنم ، النّعيق والنّعاق . ومنه قول الأخطل :

فانعِقْ بضأنك يا جرير فإنّما ... منّتك نفسك فى الخلاء ضلالا

يعنى صوّت به[٣] والنّعيق : زجر الغنم والصّياح بها . يقال : نَعَق الرّاعى بغنمه يَنْعِق نعيقاً ونَعَقاناً أى صاح بها وزجرها[٤] ويقال : نَعَق المؤذّن . ويقال : نَعَق يَنْعِق

---

(١) تفسير القرطبىّ ٥٩٠ و ٥٩١
(٢) الجلالين .
(٣) تفسير الطّبرىّ ٢/٤٩
(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٤

نعيقاً ونعاقاً ونعقاً[١] والنعيق : التصويت[٢] .

ومثل الّذين كفروا كمثل الّذى ينعق : شبّه تعالى واعظ الكفّار وداعيهم وهو محمّد ﷺ بالرّاعى الّذى ينعق بالغنم والإبل فلا تسمع إلاّ دعاءه ونداءه ولا تفهم ما يقول[٣] هكذا فسّره ابن عبّاس وأبو العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانىّ والرّبيع بن أنس[٤] والزجّاج والفرّاء وسيبويه[٥] والسّدّى[٦] والطّبرىّ[٧] .

إلاّ دعاءً ونداءً : النّداء للبعيد والدّعاء للقريب . ولذلك قيل للأذان بالصّلاة نداء لأنّه للأباعد[٨] ويقال : فلانٌ أندى صوتاً من فلان أى أقوى وأشدّ وأبعد مذهباً[٩] .

صمٌّ بكمٌ عمى : هم صمٌّ بكمٌ عمى[١٠] رفع على الذّمّ[١١] .

من المعروف أنّ من فوائد ضرب الأمثال تقريب البعيد وتنزيل المعنوىّ بعيد المنال منزلة المحسوس قريب المنال ، وفى الآية الكريمة مثلٌ ضربه الله سبحانه وتعالى تعميقاً لمعنى الآية الكريمة السّابقة الّتى قرّرت اتّباع المشركين آباءهم الّذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون إلى صواب . وحينما عطّل الأتباع عقولهم وألقوا مقاليد أمورهم إلى الّذين لايعقلون غدوا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً لأنّ الأنعام ليس لها عقولٌ أصلاً وهم لهم عقولٌ ولكنّهم لا يفقهون بها . وفى الآية الكريمة من مظاهر إعجاز القرآن الكريم البلاغة بالحذف . واللّطيف فى الأمر أنّه رغم اختلاف العلماء فى معنى الآية الكريمة وبعبارةٍ أخرى فى فهم تركيب المثل فقد تبيّن بالوقوف على آراء العلماء أنّ رأى جمهور العلماء الّذين يتزعّمهم ترجمان القرآن وحبر الأمّة عبد الله بن عبّاس رضى الله تعالى عنهما

---

(١) البحر المحيط ١/٤٧٧ (٢) الكشّاف ١/٢٥٠

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٣ (٤) تفسير ابن كثير ١/٢٠٤

(٥) انظر تفسير القرطبىّ ص ٥٩٣ ومعانى القرآن للفرّء ٢/٩٩ وأمثال القرآن لابن القيّم ص ٤٩

(٦) انظر البحر المحيط ١/٤٨٢

(٧) تفسير الطّبرىّ ٢/٤٩ وجاء فى تفسير القرطبىّ ص ٥٩٣ ما يفهم منه أن الطّبرىّ يرى غير رأى ابن عبّاس وليس الأمر كما ذكر .

(٨) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٤ (٩) البحر المحيط ١/٤٧٧

(١٠) انظر معانى القرآن للفرّاء ١/١٠٠ والجلالين

(١١) الكشّاف ١/٢٥٠

هو الرّأى الرّاجح الّذى ارتاحت إليه النّفس آخرا .

وإذا كنّا فهمنا معنى المثل بأنّه الصّفة ففى الإمكان أن يكون معنى المثل على النّحو الآتى . ومثل الّذين كفروا بالقياس إلى داعيهم إلى الهدى ومناديهم إلى الفلاح محمّد بن عبد الله ﷺ ــ ويلاحظ عدم ذكر الآية الكريمة للمصطفى ﷺ باعتبار الشّق الثّانى من المثل يدلّ عليه ــ كمثل ذلك الرّاعى الحريص على مصلحة ماشيته الذّابّ عنها كلّ أذى المقرّب إليها كلّ نفع ، والّذى يصيح بماشيته داعياً لها إلى ما يصلحها من اجتماع بدل افتراق وطعامٍ وشرابٍ هنيئين مريئين ، والّذى يزجر ماشيته عن كل ما يلحق بها أدنى أذًى من ذئبٍ فاتك أو هوةٍ سحيقةً أو مكان لا كلأ فيه ولا ماء . فهل تلك الإبل والبقر والغنم والحمير وغيرها من البهائم[1] تفقه شيئاً ممّا يقول الرّاعى ؟ أم أنّ كلّ ما تسمعه لا يتجاوز الدّعاء إن كانت قريبة ، النّداء إن كانت بعيدة ؟ إنّ كلّ ما تسمعه لا يتجاوز الدّعاء والنّداء فهى لا تفقه شيئاً ولا تعيه . وفى المقابل ما الّذى فهمه كفّار مكّة ووعاه مشركو قريش ومن لفّ لفّهم من كفّار العرب وأهل الكتاب ومشركيهم من دعاء المصطفى ﷺ وندائه لهم سرّاً وجهرا ؟ إنّ المصطفى ﷺ هو راعى الإنسانيّة وهو الحريص على إدنائها من كلّ ما هو صالحٌ لها وعلى إقصائها من كلّ ما هو طالحٌ لها وقد استجاب لدعائه وندائه المؤمنون المتّقون أمّا الكافرون والمشركون فقد كان موقفهم من دعوته عليه الصّلاة والسّلام إلى صراط العزيز الحميد هو ذات موقف البهائم من الرّاعى . إنّ البهائم لا تسمع من الرّاعى إلاّ دعاءً ونداءً ولا تفقه شيئاً ممّا يقول ، وإن الكافرين والمشركين ويلحق بهم المنافقون لا يسمعون من الدّاعى إلى الحقّ والهدى محمّد بن عبد الله ﷺ إلاّ دعاءً ونداءً ولا يفقهون شيئاً مما يقوله عليه الصّلاة والسّلام لأنّهم بعيدون عنه ﷺ بقلوبهم ونفوسهم ومشاعرهم وعقولهم . ونتذكّر بهذه المناسبة ما جاء عن المنافقين فى سورة محمّد عليه الصّلاة والسّلام[2] : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك قالوا للّذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً . أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهواءهم ﴾ .

---

(١) البحر المحيط ١/٤٨٢ (٢) الآية ١٦

وكانت نتيجة إعراض الكافرين عن دعوة الحقّ وإصرارهم على الباطل وتعطيلهم نعمة العقل واتّباعهم آباءهم الّذين لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون والّذين اتّبعوا بدورهم سادتهم وكبراءهم وقادتهم أن غدوا بمنزلة الصّمّ البكم العمى الّذين لا يعقلون . بل إنّهم بنصّ الآية الكريمة صمٌّ بكم عمى . ﴿ صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون ﴾ والمعنى هم صمّ بكمٌ عميٌ وهم لا يعقلون .

إنّ الأنعام تسمع ولكنّها لا تعى وإنّ الكافرين يسمعون ولكنّهم لا يعون لأنّ السّماع مجرّداً يشترك فيه الإنسان والحيوان ، ويمتاز الانسان بأنّه إذا سمع وعى وانتفع ممّا يسمع ، فإذا لم يع ولم ينتفع فذلك معناه أنّه لم يرق بسمعه عن مستوى الحيوان الّذى يسمع ولكنّه لا يعى . إنّ هؤلاء الكافرين لا يسمعون صوت دعوة الحقّ سماع تدبّر ولا ينتفعون بها ولا يستجيبون لها ولا يتمشّون بموجبها .

وإنّ الأنعام بطبعها بكمٌ لا تنطق . وهى إذا رغبت أو رهبت رجت أو خافت غمغمت وجمجمت وما أبانت . وإنّ الإنسان بطبعه ناطق . وإنّ الهدف الأوّل من إنعام الله تعالى على جنس الإنسان بنعمة النّطق أن يقول الحقّ وأن يعلن شهادته شهادة ألاّ إلٰه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله . وحينما لا ينطق الإنسان بشهادة الحقّ ، وحينما ينطق ذلك الإنسان بشهادة الزّور ويدلى بقول الفجور هل يعتبر من زاوية الهدف الّذى علّمه الله تعالى البيانَ من أجله ناطقاً أم أبكم ؟ إنّه يعتبر من هذه الزّاوية أبكم وبمنزلة الحيوان الأعجم بل أضلّ سبيلا لأنّه لا يحقّق الهدف الّذى من أجله ميّزه الله تعالى بالبيان بل أساء استعمال هذه النّعمة أيّما إساءةً فكان — والعياذ بالله تعالى — حرباً على الله تعالى وعلى رسوله المصطفى ﷺ وعلى دين الله تعالى الّذى رضيه جلّ وعلا لعباده .

وإنّ الأنعام ترى وتنظر ، ولكنّها لا ترى بعين البصيرة ولا تبصر بها .

وإنّ الإنسان يرى وينظر . فمن هو الإنسان الّذى يبصر بمعنى أنّه يرى بعين بصيرته ومن هو الإنسان الّذى لا يبصر ؟ إنّ الإنسان الّذى يرى بعين البصيرة هو الّذى يرى نور الهداية والطّريقة الّتى هى أحسن فيهتدى بنور الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أحسن منتفعاً من بصيرته النيرّة ، وقلبه الّذى يفقه ويعقل . إنّه ذلك الإنسان الّذى يبصر النّور الّذى

أنزله الله تعالى فى القرآن الكريم الّذى أوحى الله تعالى به إلى المصطفى ﷺ المبيّنة سنّته للقرآن الكريم نور الله المبين وحبله المتين وصراطه المستقيم . وإن الإنسان الّذى لا يرى بعين البصيرة هو الّذى لا يرى نور المصطفى ﷺ فينصرف عنه ويتّجه إلى ظلمات الكفر والشّرك والجهل . وإنّ هذا النّوع من النّاس هو الّذى يستعمل حاسّة البصر استعمال الحيوان لها فكلاهما ينظر وكلاهما لا يُبْصر . وإذا كان للحيوان عذره فالنّظر منتهى ما خُلِق من أجله فليس للإنسان عذره لأنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلقه قد كرّمه وحمله فى البرّ والبحر ورزقه من الطّيّبات وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق تفضيلاً ، ومن هنا سفل الكافرُ الحيوان وانحطّ عن مستواه .

وإذا كان الحيوان أساساً ليس له عقل ، فإنّ الكافر الأصمّ عن سماع صوت الحقّ سماع تدبّر ، الأبكم عن قول شهادة الحقّ والإدلاء بها وإعلان لا إلٰه إلاّ الله محمّد رسول الله ، الأعمى عن نور الحقّ والهداية لأنّ عينيه وإن كانتا تنظران المحسوسات فإنّهما لا تبصران المعنويّات عمياوان عن إبصار نور الحقّ والهداية لأنّ البصيرة عمياء والعياذ بالله ، فإنّ الكافر الّذى تلك حاله بمثابة الحيوان الأعجم الّذى لا عقل له . لأنّه عطّل نعمة العقل الّتى امتنّ الله تعالى بها عليه والّتى أريد لها أن تستعمل استعمالاً صحيحاً وقد عرفنا أنّ القرآن الكريم فيما يزيد على الأربعين موضعاً قد حثّ على التفكّر وعلى استعمال نعمة العقل استعمالاً صحيحاً باعتبار العقل وسيلةً مهمّةً من وسائل المعرفة . وحينما عطّل الكافر نعمة العقل تساوى بالحيوان الّذى لا عقل له أصلاً . وحينما أساء استعمال هذه النّعمة وكان عاقبة أمره خسراً وكانت وبالاً عليه انحطّ عن مستوى الحيوان . إنّ هذا المستوى المنحطّ الّذى وصل إليه الإنسان الكافر ، والدّرك السّحيق الّذى هبط إليه وانتهى إلى قعره هو الذى يفهم من قوله تعالى فى وصف الّذين كفروا الّذين لا يسمعون دعوة الهادى البشير النّذير محمّد ﷺ سماع تدبّر ولهذا تقدّم وصفهم بالصّمم . ولمّا كان الصّمم والبكم متلازمين وكان الكافرون لا يشهدون شهادة الحقّ كان وصفهم بالبكم إثر وصفهم بالصّمم . ولمّا كانوا لا يبصرون نور الهداية وكانت حاسّة السّمع تتقدّم حاسّة الإبصار فالإنسان يسمع ما يريد وما لا يريد ، وحتّى حينما يضع أنامله فى أذنيه يظلّ يسمع

دوياً ، بينما يستطيع الإنسان أن يرى ما يريد وألاّ يرى ما لا يريد لذا كان وصف الكافرين بالعمى متأخّرا .

ولمّا كان الكافرون قد استعملوا حواسّ السّمع والنّطق والإبصار فى غير ما خلقت من أجله بل فى عكس ما خلقت من أجله فهم يجيدون السّماع لرؤسائهم وكبرائهم ، ويجيدون قول الكفر الّذى شرحت به صدورهم ، ولا يرون نور الحقّ ويرون الظّلام نوراً لذا وصفوا بأنّهم لا يعقلون . خاصّةً وأنّهم ألغوا عقولهم واستعاروا عقول آبائهم بينما القرآن الكريم يقول عن هؤلاء الآباء الضّالّين المضلّين : ﴿ أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ وإنّ الحديث عن العقل فى كلٍّ من الآيتين الكريمتين نوعٌ من الرّباط بينهما ، وإنّ الحديث عن العقل وتعطّله فى حقّ الكافرين يذكّرنا بحديث السّورة الكريمة المشابه فى صدرها عن المنافقين الّذين انتفعوا أوّل الأمر بنور الإسلام ثمّ آثروا ظلام الكفر على نور الإسلام فأطبقت عليهم الظّلمات واشتدت وطأتها لأنّها عادت بعد أن تخلّلها نور فلم يستطع المنافقون أن يرجعوا إلى السّير فى ذات الطّريق الّذى قطعوا بعضه ، ومن باب الأَوْلى ألاّ يستطيعوا مواصلة السّير . إنّ نفى العقل كان فى حقّ الكافرين الجاهرين بالكفر . وإن نفى القدرة على الرّجوع كان فى حقّ المنافقين الّذين أعلنوا الإسلام وانتفعوا إلى حين بتعاليمه وقطعوا جزءًا من طريق حياتهم فى هدى نور الإسلام بينما هم فى الحقيقة يبطنون الكفر الّذى غلب عليهم وأطبقت عليهم ظلماته من كلّ جانب . جاء فى حقّ المنافقين قوله تعالى[1] : ﴿ مثلهم كمثل الّذى استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلماتٍ لا يُبْصرون . صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾ .

وإنّ عدم إبصار الكافرين نور الهداية يذكّرنا بمثل قوله تعالى[2] : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنّم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها . ولهم آذانٌ لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضلّ . أولئك هم الغافلون ﴾ .

وإليك فهم أبى حيّان العظيم لرأى سيبويه وهو رأى الجمهور . يقول رحمه الله

---

(١) سورة البقرة ١٧ ، ١٨ (٢) سورة الأعراف ١٧٩

تعالى رحمةً واسعة[1] : « إن فى الكلام حذفين . حذفٌ من الأوّل وهو حذف داعيهم ، وقد أثبت نظيره فى الثّانى . وحذفٌ من الثانى وهو حذف المنعوق به وقد أثبت نظيره فى الأول . فشبّه داعى الكفّار براعى الغنم فى مخاطبته من لا يفهم عنه . وشبّه الكفّار بالغنم فى كونهم لا يسمعون ممّا دعوا إليه إلاّ أصواتاً ولا يعرفون ما وراءها . وفى هذا الوجه حذفٌ كثير إذ فيه حذف معطوفين ، إذ التّقدير الصّناعىّ : ومثل الّذين كفروا وداعيهم كمثل الّذى ينعق والمنعوق به . وذهب إلى تقرير هذا الوجه جماعةٌ من أصحابنا منهم الأستاذ أبو بكر بن طاهر وتلميذه أبو الحسن بن خروف والأستاذ أبو على الشّلوبين وقالو : إنّ العرب تستحسنه وإنّه من بديع كلامها . ومثاله قوله تعالى : وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء . التّقدير :وأدخل يدك فى جيبك تدخل وأخرجها تخرج بيضاء . فحذف تدخل لدلالة تخرج . وحذف وأخرجها لدلالة وأدخل . قالوا : ومثل ذلك قول الشّاعر :

وإنّى لتعرونى لذكراك فترةٌ كما انتفض العصفور بلّله القطر

لم يرد أن يشبّه فترته بانتفاض العصفور حين يبلّه القطر لكونها حركةً وسكوناً ، فهما ضدّان ، ولكن تقديره : إنّى إذا ذكرتك عرانى انتفاض ثمّ أفتر ، كما أنّ العصفور إذا بلّله القطر عراه فترة ثمّ ينتفض . غير أنّ وجيب قلبه واضطرابه قبل الفترة ، وفترة العصفور قبل انتفاضه ..... » .

الآيــة رقــم (١٧٢)

قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

اتّجه الخطاب من ذى قبل إلى النّاس جميعاً ، ومنهم المؤمنون ومنهم غير المؤمنين ، بأن يأكلوا ممّا فى الأرض حلالاً طيّباً . وبالنّظر إلى صفتى المأكول من كونه حلالاً طيّباً

---

(١) البحر المحيط ١/٤٨٢

يتضّح أنّهما صفتان أقرب إلى كونهما أساسيّتين وضروريّتين . وقد اقترن بالأمر بالأكل نهيٌ عن اتّباع خطوات الشّيطان وتحذيرٌ منه ونعيٌ على الكافرين الّذين استزلّهم الشّيطان فأغواهم وأعرضوا عن دعوة الحقّ الّتى نادى بها المصطفى ﷺ . وهكذا يتبيّن أنّ الحديث فى تلك الآيات الكريمات يغلب عليه جانب النّدرة مراعاةً للفئة الغالبة من النّاس . ولمّا كان المؤمنون هم المستفيدين حقّاً من منهج التّربية القرآنية وكانوا هم الممثّلين الحقيقيّين للثّمرة اليانعة النّاضجة لهذا المنهج فقد كان ثمّة خطابٌ خاصٌّ لهؤلاء المؤمنين .

وبالنّظر إلى نداء المؤمنين فى الآية الكريمة وما ترتّب على ذلك النّداء يتبيّن أنّه يتمشّى مع هذه الفئة المتميّزة من النّاس الّتى حقّقت الهدف الّذى خلقها الله سبحانه وتعالى من أجله ألا وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ومن ثمّ يكلّف أولئك المؤمنون بما يتمشّى مع تميّزهم بسبب إيمانهم .

ومن البيّن أنّنا بصدد شهادةٍ من عالم الغيب والشّهادة بكون المؤمنين بقيادة المصطفى ﷺ قد تحقّقت فيهم أهمّ صفةٍ مرغوبٍ فيها وهى صفة الإيمان : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا ﴾ .

وإذا كان أولئك المؤمنون قد أمروا بالأكل كما أُمِر النّاس وفيهم المؤمنون من قبل ، فإنّ الحديث عن المأكول يتضمّن معانى جديدة تتمشّى مع تميّز الفئة الّتى يتّجه إليها الخطاب . إنّ الآية تقفز التّنبيه على مصدر الطّعام وهو الأرض ، وعلى الصّفة الابتدائيّة فى كلّ طعام يطعمه الطّاعم من كونه حلالاً إلى صفة هذا المأكول بكونه طيّباً ، أى مستلذّاً ، « لأنّ كلّ ما رزقه الله لا يكون إلاّ حلالاً »[1] كما أنّها تنبّه إلى كون هذا المأكول أو المطعوم إنّما هو من رزق الله تعالى الخلق : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم ﴾ .

وما دام الحديث متّجهاً إلى المؤمنين المتّقين وما دام الموقف متعلّقاً بأمرهم أمر ندبٍ وإباحةٍ بأن يأكلوا ممّا رزقهم الله تعالى فى أرض الله تعالى الواسعة الطّويلة العريضة ،

---

(١) الكشّاف ١/٢٥٠

فالمنتظر من هؤلاء المؤمنين أن يقوموا بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على نعمه وآلائه خاصّةً وقد تبيّن فيما سبق من آياتٍ كريماتٍ كفر النّاس فى مجموعهم بآيات الله تعالى وكفرانهم لنعمه جلّ وعلا وآلائه المادّية وفى مقدّمتها ما يأكلون ممّا فى الأرض ، والمعنويّة وفى مقدّمتها إنزال الله تعالى قرآنه المجيد بلسانٍ عربيّ مبينٍ على قلبه ﷺ . وهنا نتبيّن أمر الآية الكريمة الّذين آمنوا بأن يشكروا لله تعالى نعمه وآلاءه الّتى لا تُحْصى وفى مقدّمتها الأمر بالأكل مما رزقهم الله تعالى . وإنّ الشّكر إنّما ينبغى أن يكون خاصّاً لله تعالى وحده لا شريك له لأنّ الرّزق هو وحده لاشريك له . وإنّ الرّازق وحده لا شريك له ينبغى أن يكون المعبود وحده لا شريك له . وإلى هذه المعانى السّامية النّبيلة أرشدت الآية الكريمة وبها أمرت فى خطابها للّذين آمنوا : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إيّاه تعبدون ﴾ .

إنّه حينما تكون ثمّة عبادةٌ لله تعالى وحده لا شريك له ، يكون ثمّة شكرٌ من هؤلاء العباد لله تعالى على نعمه وآلائه ، ومن مظاهر الشكر لله تعالى الامتثال المطلق لأوامره جلّ وعلا ونواهيه . ومن مظاهر الامتثال قصر الأكل المسموح والمأمور به على طيّبات ما رزق الله تعالى عباده . ومن فضل الله تعالى على هؤلاء العباد أنّ لهم فيما أحلّ الله تعالى من أكلٍ ما يكفيهم ويغنيهم عمّا سواه بل أكثر ممّا يكفيهم ويغنيهم وقد قال تعالى[1] : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّام سواءً للسّائلين ﴾ .

روى الأئمّة أحمد ومسلم والتّرمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « أيّها الناس ، إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : يا أيّها الرّسل كلوا من الطّيّبات واعملوا صالحاً إنّى بما تعملون عليم . وقال : يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم . ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّفر أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السّماء يارب يارب ومطعمه حرامٌ ومشربه حرام وملبسه حرامٌ وغذى بالحرام فأنّى يستجاب لذلك[2] وعن النّبىّ ﷺ . يقول الله تعالى : إنّى والجنّ والإنس فى نبأٍ

---

(١) سورة فصلت ٩ ، ١٠

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٢٠٥ وتفسير القرطبىّ ص ٥٩٤

عظيم . أخلق ويعبد غيرى . وأرزق ويشكر غيرى[١] .

وإذا كانت نون العظمة قد جاءت فى القول : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ وكان إثر ذلك التفاتٌ من ضمير المتكلّم إلى اسم الغائب وذلك فى القول : ﴿ واشكروا لله ﴾ فقد كان ذلك لحكمةٍ ظاهرة هى أنّ هذا الاسم الظّاهر ، وهو عظيم أسماء الذّات العليّة ، متضمّن لجميع الأوصاف الّتى منها وصف الإنعام والرّزق[٢] .

وإن الآية الكريمة التّالية تبيّن ما حرّم الله تعالى أكله .

الآيــة رقــم (١٧٣)

قال تعالى : ﴿ إنّما حرّم عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه ، إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ .

إنّما : كلمة موضوعةٌ للحصر تتضمّن النّفى والإثبات فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه ، وقد حصرت ها هنا التّحريم لا سيما وقد جاءت عقيب التّحليل فى قوله تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم ﴾ ، فأفادت الإباحة على الإطلاق ثمّ عقبها بذكر المحرّم بكلمة « إنّما » الحاصرة فاقتضى ذلك الإيعاب للقسمين فلا محرّم يخرج عن هذه الآية[٣] .

ومعنى قوله : إنّما حرّم عليكم الميتة : ما حرّم عليكم إلاّ الميتة[٤] .

الميتة : إنّما هى الميّتة خفّفت ، وكذلك قوله : بلدةً مَيْتا ، يريد به ميّتاً ، ولكن يخفّفون الياء ، كما يقولون فى هيّنٍ وليّنٍ : هَيْنٌ ولَيْن ، خفيفة . قال الشّاعر :

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ ... إنّما المَيْتُ ميّتُ الأحيــاء

---

(١) الكشّاف ١/٢٥٠ (٢) انظر هنا البحر المحيط ١/٤٨٥

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٥

(٤) تفسير الطّبرىّ ٢/٥٠ وانظر معنى إنّما بالتّفصيل فى معانى القرآن للفرّاء ١/١٠٠ وتفسير الطّبرىّ ٢/٥٠

فثقّل وخفّف فى معنى واحد[١] والمَيْتُ مخفّفٌ عن الميّت[٢] والميتة ما فارقته الرّوح من غير ذكاةٍ ممّا يذبح . وما ليس بمأكول فذكاته كموته كالسّباع وغيرها[٣] وهذه الآية عامّةٌ دخلها التّخصيص بقوله عليه السّلام : أحلّت لنا ميتتان : الحوت والجراد ، ودمان : الكبد والطّحال . أخرجه الدّراقطنىّ[٤] وأكثر أهل الفقه يجيزون أكل جميع دوابّ البحر حيّها وميّتها وهو مذهب مالك . وتوقّف أن يجيب فى خنزير الماء وقال : أنتم تقولون خنزيراً[٥] فأمّا النّاقة إذا نحرت أو البقرة أو الشّاة إذا ذبحت وكان فى بطنها جنينٌ ميّت فجائزٌ أكله من غير تذكيةٍ له فى نفسه . إلاّ أن يخرج حيّاً فيذكى ويكون له حكم نفسه وذلك أنّ الجنين إذا خرج منها بعد الذّبح ميتاً جرى مجرى العضو من أعضائها[٦] .

وقد روى جابر رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ وسلّم سئل عن البقرة والشّاة تذبح والنّاقة تنحر فيكون فى بطنها جنينٌ ميّت فقال : إن شئتم فكلوه لأنّ ذكاته ذكاة أمّه . خرّجه أبو داود بمعناه من حديث أبى سعيدٍ الخدرىّ . وهو نصٌّ لا يحتمل[٧] وأمّا شعر الميتة وصوفها فطاهرٌ لما روى عن أمّ سلمة رضى الله عنها عن النّبىّ ﷺ أنّه قال : « لا بأس بِمَسْك[٨] الميتة إذا دُبغ وصوفها وشعرها إذا غسل . ولأنّه كان طاهراً لو أخذ منها فى حال الحياة فوجب أن يكون كذلك بعد الموت . إلاّ أنّ اللّحم لمّا كان نجساً فى حال الحياة كان كذلك بعد الموت[٩] وأسند التّحريم إلى الميتة والظّاهر أنّ المحذوف هو الأكل[١٠] ويقول ابن كثير[١١] : « ولمّا امتنّ تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيّبه ذكر أنّه لم يحرّم عليهم من ذلك إلاّ الميتة وهى الّتى تموت

---

(١) معانى القرآن للأخفش ١/١٥٥ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٥٠

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٤٧٧

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٦

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٦ وانظر تفسير ابن كثير ١/٢٠٥

(٥) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٦

(٦) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٧

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٧

(٨) المَسْك بفتح الميم : الجِلد

(٩) تفسير القرطبىّ ص ٥٩٨

(١٠) البحر المحيط ١/٤٨٦

(١١) تفسير ابن كثير ١/٢٠٥ .

حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقةً أو موقوذةً أو متردّيةً أو نطيحةً أو عدا عليها السّبع . وقد خصّص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى ﴿أحلّ لكم صيد البحر وطعامه﴾ .... وحديث العنبر فى الصحّيح . وفى المسند والموطّأ والسنّن قوله عليه السّلام فى البحر : هو الطّهور ماؤه الحلّ ميتته » .

والدّم : « اتّفق العلماء على أنّ الدّم حرامٌ نجسٌ لا يؤكل ولا ينتفع به .... ويسيره فى البدن والثّوب يصلّى فيه . وإنّما قلنا ذلك لأنّ الله تعالى قال : ﴿ حرّمت عليكم الميتة والدّم ﴾ . وقال فى موضعٍ آخر : ﴿ قل لا أجد فيما أوحِى إلىّ محرّمًا على طاعمٍ يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً ﴾ . فحرّم المسفوح من الدّم .... قلت : ذكر الله سبحانه وتعالى الدّم هٰهنا مطلقاً وقيّده فى الأنعام بقوله : مسفوحاً . وحمل العلماء هٰهنا المطلق على المقيّد إجماعاً . فالدّم يراد به المسفوح ، لأنّ ما خالط اللّحم فغير محرّم بإجماع . وكذلك الكبد والطّحال مجمعٌ عليه . وفى دم الحوت المزايل له اختلاف . وروى عن القابسىّ أنّه طاهر ويلزم على طهارته أنّه غير محرّم . وهو اختيار ابن العربىّ ، قال : لأنه لو كان دم السّمك نجساً لشرعت ذكاته .

قلت : وهو مذهب أبى حنيفة فى دم الحوت . سمعت بعض الحنفيّة يقول : الدّليل على أنه طاهر أنّه إذا يبس ابيضّ بخلاف سائر الدّماء فإنه يسودّ . وهذه النّكتة لهم فى الاحتجاج على الشّافعيّة »[1] ويقول أبو حيان[2] : « وأجمعوا على جواز أكل الدّم المتحلّل بالعروق واللّحم الشّاقّ إخراجُه ، وكذلك الكبد والطّحال » .

ولحم الخنزير : ذهب أكثر اللّغويّين إلى أن لفظة الخنزير رباعيّة ، وجمع الخنزير خنازير[3] يقول القرطبىّ[4] : « خص الله تعالى ذكر اللّحم من الخنزير ليدلّ على تحريم عينه . ذكّى أو لم يذكّ وليعمّ الشّحم وما هنالك من الغضاريف[5] وغيرها ... أجمعت الأمة على تحريم شحم الخنزير .... لا خلاف فى تحريم خنزير البرّ كما ذكرنا . وفى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٠ ، ٦٠١
(٢) البحر المحيط ١/٤٨٧
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٢
(٤) تفسير القرطبى ص ٦٠١ ، ٦٠٢
(٥) الغُضروف والغُرْضوف بضمّ الغين كلّ عظمٍ رخصٍ يؤكل .

خنزير الماء خلاف . وأبى مالك أن يجيب فيه بشيء » ويقول أبو حيّان[١] : « وإنّما خصّ اللّحم بالذّكر والمراد جميع أجزائه لكون اللّحم هو معظم ما ينتفع به كما نصّ على قتل الصّيد على المحرم والمراد حظر جميع أفعاله فى الصّيد ، وكما نصّ على ترك البيع إذا نودى للصّلاة من يوم الجمعة لأنّه كان أعظم ما كانوا يبتغون به منافعهم فهو أشغل لهم من غيره ، والمراد جميع الأمور الشّاغلة عن الصّلاة » واختلفوا فى الانتفاع بشعره فى خرزٍ وغيره فأجاز ذلك مالك وأبو حنيفة والأوزاعىّ ولم يجز ذلك الشافعىّ[٢] .

وما أهلّ به لغير الله : أى ما ذبح للأصنام والطّواغيت . قاله ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضّحّاك . أو ما ذكر عليه اسم غير الله . قاله الرّبيع بن أنس وغيره[٣] والإهلال : رفع الصّوت . يقال : أهلّ بكذا أى رفع صوته[٤] ومنه الإهلال بالتّلبية . ومنه سمّى الهلال لارتفاع الصوت عند رؤيته . ويقال : أهلّ الهلال واستهلّ . ويقال : أهلّ بكذا رفع صوته . ومنه إهلال الصّبىّ واستهلاله وهو صياحه عند ولادته[٥] وسمّى ذلك إهلالاً لأنّهم يرفعون أصواتهم باسم المذبوح له عند الذّبيحة . ثمّ توسّع فيه وكثر حتّى صار اسماً لكلّ ذبيحةٍ جهر عليها أو لم يجهر كالإهلال بالتّلبية صار علماً لكلّ محرمٍ رفع صوته أو لم يرفعه[٦] وغلب ذلك فى استعمالهم حتّى عبّر به عن النّيّة الّتى هى علّة التّحريم . ألا ترى أنّ علىّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه راعى النّيّة فى الإبل الّتى نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنّها ممّا أهلّ لغير الله به ، فتركها النّاس[٧] ويقول القرطبىّ[٨] : « وما أهل به لغير الله ، أى ذكر عليه اسم غير الله تعالى ، وهى ذبيحة المجوسىّ والوثنىّ والمعطّل . فالوثنىّ يذبح للوثن ، والمجوسىّ للنّار ، والمعطّل لا يعتقد شيئا فيذبح لنفسه ».

فمن اضطرّ : أى فمن اضطرّ إلى شيٍ من هذه المحرّمات أى أحوج إليها فهو افتعل من

---

(١) البحر المحيط ١/٤٨٧ (٢) البحر المحيط ١/٤٨٨

(٣) البحر المحيط ١/٤٨٨ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٢

(٥) انظر البحر المحيط ١/٤٧٧ وتفسير القرطبىّ ص ٦٠٢ .

(٦) البحر المحيط ١/٤٨٩ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٥٠

(٧) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٢ (٨) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٢

الضّرورة[١] والاضطرار لا يخلو أن يكون بإكراهٍ من ظالمٍ أو بجوعٍ في مخمصة . والّذى عليه الجمهور من الفقهاء والعلماء فى معنى الآية هو من صيّره العُدْم والغَرَث وهو الجوع إلى ذلك وهو الصّحيح[٢] .

غير باغٍ ولا عاد : غير نصب على الحال . وقيل على الاستثناء . وإذا رأيت غير يصلح فى موضعها فى فهى حال . وإذا صلح موضعها إلاّ فهى استثناءٌ فقس عليه[٣]

وباغٍ أصله باغِيٌ ثقلت الضّمّة على الياء فسكنت والتّنوين ساكن فحذفت الياء والكسرة دالّة عليها[٤] والبغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرَّى ، تجاوزَه أو لم يتجاوزْه[٥] وبغى الجرحُ تجاوز الحدَّ فى فساده[٦]

والعَدْو التّجاوز ومنافاة الالتئام . فتارة يُعْتَبَر بالقلب فيقال له العداوةُ والمُعاداة ، وتارةً بالمشى فيقال له العَدْو ، وتارةً فى الإخلال بالعدالة فى المعاملة فيقال له العُدوان والعَدْو ، قال : فيسبّوا الله عَدْواً بغير علم[٧] .

والمعنى فيما قال قتادة والحسن والرّبيع وابن زيد وعكرمة : غير باغٍ فى أكله فوق حاجته ، ولا عادٍ بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحةً ويأكُلها . وقال السّدّىّ : غير باغٍ فى أكلها شهوةً وتلذّذاً ، ولا عادٍ باستيفاء الأكل إلى حدّ الشّبع[٨] « عن الرّبيع : ﴿ فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عاد﴾ . يقول : من غير أن يبتغى حراماً ويتعداه . ألا ترى أنّه يقول : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾[٩] ويقول ابن كثير[١٠] : « أى فى غير بغيٍ ولا عدوان وهو مجاوزة الحدّ » .

تحدث السّياق عن النّاس كلّهم ابتداءً وأمرهم بأن يأكلوا ممّا فى الأرض حلالاً

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٣ (٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٣

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦١٠ وانظر معانى القرآن للفرّاء ١٠٢/١

(٤) تفسير القرطبىّ ص ٦١٠ (٥) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ ص ٥٥

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٥٥ وفى البحر المحيط ٤٨٩/١ : « وأصل البغى طلب الفساد » .

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى ص ٣٢٦

(٨) تفسير القرطبى ص ٦١٠ وانظر تفسير الطّبرىّ ٥٢/٢

(٩) تفسير الطّبرىّ ٥٢/٢ (١٠) تفسير ابن كثير ٢٠٥/١

طيّباً ، وبما أنّ فى النّاس كافرين ومؤمنين فقد ترتّب على الأمر بالأكل أمورٌ ومسائل تتمشّى غالباً مع الفريق الكافر الأكثر عدداً المصرّ على كفره وعناده والّذى نزّله السّياق منزلة الأنعام بل هو أضلّ سبيلا . ثمّ تحوّل السيّاق إلى المؤمنين المستفيدين حقّاً من تعاليم القرآن الكريم ومنهجه التّربوىّ ، وترتّب على خطاب المؤمنين أمورٌ ومسائل تتمشّى مع صفة الإيمان وطبيعته ، ومن ذلك تبيين حكم الله تعالى لهؤلاء المؤمنين فيما أحلّ جلّ وعلا لهم وحرّم من المطعومات .

والآية الكريمة تبدأ بأداة الحصر « إنّما » والمعنى كما تبيّن : ما حرّم عليكم إلاّ الميتة إلخ . والخطاب كما هو واضحٌ امتدادٌ للآية الكريمة السّابقة فلا زال متّجهاً إلى الّذين آمنوا المستفيدين حقًّا من تعاليم القرآن الكريم وبخاصّةٍ فى مجال الأحكام والحلال والحرام وقد قال تعالى[1] : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون حتّى يحكّموك فيما شجر بينهم ثمّ لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا ممّا قضيت ويسلّموا تسليما ﴾ فإذا كان الشّيطان الرّجيم والنّفس الأمّارة بالسّوء قد أوحيا للعرب قبل الإسلام مثلاً بأن يقولوا على الله تعالى ما لا يعلمون فقضوا بتحريم البحائر والسّوائب والوصائل والحوامى وإذا تمثّلنا جدالاً شجر فى مسألة التّحريم هذه فالمعروف أنّ الحكم لله تعالى وحده لا شريك له وقد قال تعالى[2] : ﴿ ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ[3] ولا وصيلة ولا حامٍ ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون . وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرّسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية تنصّ على أربعة أنواعٍ من المحرّمات هى الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله ، ومن البيّن أنّ هذه الآية الكريمة إنّما ينظر إليها فى ضوء الآيات

---

(١) سورة النّساء ٦٥ (٢) سورة المائدة ١٠٣ ، ١٠٤

(٣) جاء فى صحيح البخارىّ ٦٨/٦ عن سعيد بن المسيّب قال : البَحيرة الّتى يُمْنَع درُّها للطّواغيت ، فلا يَحْلُبُها أحدٌ من النّاس ، والسّائبة كانوا يسيّبونها لآلهتهم لا يُحْمل عليها شىء . قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامرٍ الخزاعىّ يجرّ قُصْبَه فى النّار كان أوّل من سيّب السّوائب . والوصيلة النّاقة البِكر تبكّر فى أوّل نتاج الإبل ثمّ تثنّى بَعْدُ بأنثى وكانوا يسيّبونها لطواغيتهم إن وصَلَتْ إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر . والحام فحل الإبل يَضْرِب الضِّراب المعدود فإذا قضى ضِرابه ودّعوه للطّواغيت واعفَوْه من الحمل فلم يُحْمَل عليه شىءٌ وسمّوه الحامى » .

الكريمات الأُخر فى الموضوع ذاته ، وفى ضوء سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم ، وإنّه بالنّظر إلى آيات سورة المائدة وسورة الأنعام وسورة النّحل يتبيّن أنّ هذه العناصر الأربعة قد جاءت فى التّرتيب ذاته مع زيادة تفصيلٍ وتبيين ، وبخاصّةٍ فى آية سورة المائدة ، وإنّ التّشابه بين آية سورة البقرة وآية سورة النّحل كبير ، وفى آية سورة البقرة إضافةٌ فى نفى الإثم عن المضطرّ . جاء فى سورة المائدة[١] قوله تعالى : ﴿ حُرِّمت عليكم الميتةُ والدّم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة ... ﴾ وجاء فى سورة الأنعام[٢] قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّماً على طاعمٍ يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ فإنّه رجسٌ أو فِسْقاً أُهِلّ لغير الله به ، فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ ربّك غفورٌ رحيم ﴾ وجاء فى سورة النحل[٣] قوله تعالى : ﴿ إنّما حَرَّم عليكم الميتةَ والدَّم ولحم الخنزير وما أهلَّ لغير الله به فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ .

وإن ترتيب المحرّمات الأربعة وفق هذا النّسق فى الآيات الكريمات الأربع ممّا يبعث الرّغبة على تلمّس الحكمة فى هذا الترتيب . وهذا يقتضى منّا أن نتبيّن ما لم نتبيّن بعد من ملابسات كلٍّ من هذه العناصر الأربعة . فإذا نظرنا إلى الميتة وهى ما فارقته الرّوح من غير ذكاةٍ ممّا يذبح ، استطعنا أن نتبيّن ملابسات هذه الميتة فى آية سورة المائدة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكل السّبع إلاّ ما ذكّيتم ﴾ المنخنقة : الميّتة خنقاً . والموقوذة : المقتولة ضرباً . والمتردّية : السّاقطة من علو إلى أسفل فماتت . والنّطيحة : المقتولة بنطح أخرى لها . وما أكل السّبع إلاّ ما ذكيتم : وما أكل السّبع منه إلاّ ما أدركتم فيه الرّوح من هذه الأشياء فذبحتموه[٤] .

والمراد بالدّم الدّم المسفوح على نحو ما بيّنت آية سورة الأنعام . والدّم المخالط للّحم غير محرّم بإجماع العلماء . وجاء فى الحديث الّذى أخرجه الدّارقطنىّ : أحلّت لنا ميتتان الحوت والجراد ، ودمان : الكبد والطّحال . وبشأن الخنزير سبق أن تبيّنّا أنّ المراد تحريم

---

(١) الآية ٣ (٢) الآية ١٤٥
(٣) الآية ١١٥ (٤) انظر الجلالين

عين الخنزير ، ذكّى أو لم يذكّ ويلحق بلحم الخنزير شحمه وغضاريفه وسائر عناصره .

وبشأن ما أهلّ به لغير الله سبق أنْ تبيّنا أنّ المراد تحريم كلّ ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى وما ذكر عليه اسم غير الله تعالى ، وما ذُبح لغير الله تعالى ويلحق بذلك ما ذُبح على النُّصب وهو ما نصّت عليه آية سورة المائدة : ﴿ وما ذُبح على النُّصب ﴾ والمراد ما ذبح على اسم النُّصب جمع نصاب وهى الأصنام[1] وقد جاء فى سورة الأنعام[2] قوله تعالى : ﴿ فكلوا ممّا ذُكِر اسمُ الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألاّ تأكلوا مِمّا ذُكِر اسم الله عليه وقد فصّل لكم ما حرّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه . وإنّ كثيراً ليُضلّون بأهوائهم بغير علم . إنّ ربّك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إنّ الّذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا ممّا لم يُذْكَرِ اسمُ الله عليه وإنّه لفسق . وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعمتموهم إنّكم لمشركون ﴾ .

أما وقد تبيّنت ملابسات كلٍّ من المحرّمات الأربعة فإنّا ربّما استطعنا أن نقول : إنّ الآيات الكريمات الأربع تبدأ بتحريم الميتة انطلاقاً من اتّفاق النّفوس السّويّة على عدم استساغة الميتة فى أىّ صورةٍ من الصّور وتسير وراء ذلك فى ترتيب المحرّمات منطلقةً من هذا العزوف وعدم الاستساغة مراعيةً مقدار تصيب كلٍّ من هذه المحرّمات من عزوف النّفس السّويّة وانصرافها عنه . وبشأن أوّل المحرّمات تجمع الآيات الكريمات على اختيار لفظ الميتة الّتى يتبادر معها إلى النّفس حال الحيوان الّذى تسرّب إليه البلى وفاح من جسده المتفسّخ المتهرّىء العَفَن . إنّ كلّ نفسٍ سويّة تعاف بالفطرة هذا النّوع من الطّعام ، ويلحق به كلّ أنواع الميتة الّتى تبيّنّا خاصّةً إذا عرفنا أنّ من ملابسات الموت فى هذه الأحوال غالباً احتباس الدّم داخل الجسد .

فإذا تحوّلنا إلى الدّم المسفوح الّذى وصفته آية سورة الأنعام بأنّه رجس وبأنّ أكله حرام تذكّرنا بهذه المناسبة عمليّة الفَصْد الّتى كان يلجأ إليها أهل الجاهليّة فى الأزمة . والفَصْد : شقّ العِرْق . وفَصَدَ النّاقة : شقّ عِرْقَها ليستخرج دمه فيشرَبه . والفصيد :

---

(١) انظر الجلالين (٢) الآيات ١١٨ — ١٢١

دمٌ كان يوضع فى الجاهليّة فى مِعًى من فَصْد عِرْقَ البعير ويُشْوى ، وكان أهل الجاهليّة يأكلونه ويطعمونه الضّيف فى الأَزْمة[1] إنّ العرب فى جاهلّيتهم الجهلاء كانوا يلجأون وقت الشدّة لعمليّة الفَصْد وأكل الفصيد . وليس بخافٍ حظّ هذا الدّم المسفوح من عزوف النّفس وانصرافها عنه . ولو تمثّلنا مضطرّاً أمامه ميتةٌ وفصيد ، فلعلّ أكل الفصيد أهونهما وأقلّهما مرارةً وسوءًا .

فإذا تحوّلنا إلى النّوعين الأخيرين من المحرّمات الأربعة وهما لحم الخنزير وما أهلّ به لغير الله تعالى ، استطعنا أن نتبيّن من الواقع ، حينما نتجاوز المسلمين إلى غير المسلمين ، أنّ كثيراً من هذا الغير يأكل كلاًّ من هذين النّوعين . وإذا عرفنا أنّ أهل الكتاب الّذين أحلّ الله تعالى لنا ذبيحتهم ، يشكّلون شقًّا هائلاً من مجموع الّذين يأكلون لحم الخنزير مع أنّ الله سبحانه وتعالى قد حرّم عليهم كما حرم علينا أكله استطعنا أن نفهم الحظّ الموفور لهذا الحيوان القذر ، بل الّذى يكاد يعتبر أقذر حيوان ، من عزوف النّفس السّويّة وإعراضها عنه ، لأنّ الله سبحانه وتعالى حرّم أكله فى المقام الأوّل .

فإذا تحوّلنا إلى النّوع الرّابع من المحرّمات وهو ما أهلّ به لغير الله تعالى تبيّنا أنّ المقصود هنا ذلك الحيوان الّذى أحلّ الله سبحانه وتعالى لنا أكله إذا ذكر عليه اسم الله تعالى . ومن البيّن أن علّة التّحريم تتركّز فى عدم ذكر اسم الله تعالى عليه فى أثناء ذبحه ، ومن البيّن كذلك أنّ هذا النوّع حينما نتجاوز علّة التّحريم أقلّ الأنواع الأربعة المحرّمة حظًّا من عزوف النّفس وصدوفها عنه . وبما أنّ اسم الله تعالى عليه فإنّه هو المعنىّ بنهى الله تعالى عن أكله فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق ﴾ ومعنى الفسق الخروج عمّا يحلّ . ويلاحظ أنّ صفة الفسق فى حقّ هذا النّوع قد جاءت فى الآية الكريمة الأخرى من سورة الأنعام ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىّ محرّماً على طاعمٍ يطعمه إلاّ أن يكون ميتةً أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ فإنّه رجسٌ أو فسقاً أهلّ لغير الله به ﴾ وقد وصفت آية سورة المائدة كلّ الأمور المحرّمة بأنّها فسق .

---

(١) لسان العرب « فصد » .

قال تعالى : ﴿ ذلكم فسق ﴾ والمعنى : ذلك خروجٌ عن طاعة الله تعالى .

إنّ نصيب هذه المحرّمات الأربعة المتدرّج من عزوف النفس السّويّة ، على النّحو الّذى تبيّنا يصحّ أن يكون ممثّلاً للحكمة من إجماع الآيات الكريمات الأربع على ترتيب المحرّمات الأربعة وفق نسقٍ واحد . وإنّ نفس المسلم المؤمن التّقىّ النّقىّ تأتى على رأس قائمة النّفوس السّويّة الأبيّة ، خاصّةً إذا تبيّنا بشأن الباعث على عزوف هذه النّفس السّويّة الأبيّة عن النّوع الرّابع من المحرّمات هو الباعث الدّينىّ وحده . إنّ هذا النّوع الرابع من المحرّمات وإن كان ــ لولا تحريم الله تعالى له ــ من أشهى المأكولات وألذّها وأطيبها فإنّ نفس المؤمن التّقىّ الورع تعزف عنه عزوفاً كلّيًّا امتثالاً لأمر الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه وإنّه لفسق ﴾ .

وهكذا يتبيّن ، بسبب خلوص الباعث الدّينىّ وراء عزوف نفس المسلم عن النّوع المحرّم الرّابع ، أنّ الباعث الدّينىّ هو الأساس . ووراء ذلك راعت الآيات الكريمات فى ترتيب هذه المحرّمات الأربعة مقدار نصيبها من البواعث على عزوف النّفس واشمئزازها .

ومع أنّ الآية الكريمة تنصّ على أنواعٍ أربعةٍ من المحرّمات ، ومع أنّ فى آية سورة المائدة تفصيلاً ، فقد تبيّنا اندراج أكثر المحرّمات تحت الميتة ، ولا يبقى فى هذا المجال سوى ما ذبح على النّصب وذلك فى قوله تعالى فى آية سورة المائدة : ﴿ وما ذُبح على النُّصب ﴾ ومن البيّن أنّ هذا لاحقٌ بما أهلّ به لغير الله تعالى لأنّه ذبح على الأصنام و لم يذكر عليه اسم الله تعالى .

وإنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ تسع عباده المؤمنين المتّقين المضطرّين إلى أكل شىءٍ من هذه المحرّمات وقد أشرفوا على هلاكٍ محقّق . إنّ الآية الكريمة تضع شرطين اثنين أمام المؤمن المتّقى المضطرّ كى يندرج ضمن الّذين رفع الإثم عنهم فى حال الأكل من المحرّمات بدافع الضّرورة الملحّة ، إنّ هذين الشّرطين هما أن يكون المضطرّ غير بـاغ . ولا عاد . والمعنى : غير باغٍ فى أكله فوق حاجته فعليه أن يكتفى بما يدفع عنه الموت ولا عادٍ بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحةً ويأكلها . ويصح أن يكون المعنى : غير باغٍ فى أكلها شهوةً وتلذّذاً ، ولا عادٍ باستيفاء الأكل إلى حدّ الشّبع . إنّ البغى بمعنى

تجاوز الاقتصاد ، فيما ينبغى أن يتحرّى ، إلى الفساد . وإنّ العدوان ، بمعنى تجاوز الاقتصاد إلى الفساد والانغماس فى أعماق الفساد ، كلٌّ منهما منهيٌّ عنه . إنّ البغى المؤدّى إلى العدوان منهيٌّ عنه فكيف بالعدوان . وإنّ هذين الشّرطين ضروران من أجل استحقاق المؤمن التّقىّ النّقىّ لنفى الإثم عنه ، ولشمول غفران الله تعالى ورحمته له .

إن الآية الكريمة فى حال تحقّق الشّرطين تنفى جنس الإثم عن المؤمن فهو كأنه لم يأكل شيئاً . وهكذا تتبيّن مغفرة الله تعالى الّتى شملت المؤمنين المتّقين فكأنّهم لم يرتكبوا مأثماً ، وهكذا تتبيّن رحمة الله تعالى بعباده حينما أكمل لهم دينهم وأتمّ عليهم نعمته فبيّن لهم الحلال والحرام ، وحينما أذن للمضطرّ منهم غير الباغى وغير العادى أن يأكل ، غير آثمٍ وبقصد أن يدفع الموت عن نفسه ، ممّا حرّم الله تعالى عليه أكله غير مضطرّ .

مسائل فقهية :

إذا وجد المضطرّ ميتةً وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذًى فإنّه لا يحلّ له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف[١] لحديث أبى هريرة رضى الله عنه وقد سئل رسول الله ﷺ :أفرأيت إن احتجنا إلى الطّعام والشّراب ؟ فقال رسول الله ﷺ :« كل ولا تحْمِل واشرب ولا تحمل » خرّجه ابن ماجة رحمه الله[٢] .

عن مسروق قال : من اضطرّ فلم يأكل و لم يشرب ثمّ مات دخل النّار . وهذا يقتضى أنّ أكل الميتة للمضطرّ عزيمةٌ لا رخصة[٣] .

ولا خلاف بين أهل العلم متأخّريهم ومتقدّميهم فى وجوب ردّ مهجة المسلم عند خوف الذّهاب والتّلف بالشّىء اليسير الّذى لا مضرّة فيه على صاحبه وفيه البلغة[٤] .

وفى سنن ابن ماجة أن عبّاد بن شرحبيل ، رجلاً من بنى غُبر ، قال : أصابنا عام مخمصةٍ فأتيت المدينة فأتيت حائطاً[٥] من حيطانها فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٠٥ (٢) انظر تفسير القرطبىّ ص ٦٠٤

(٣) تفسير ابن كثير ١/١٠٦ (٤) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٤

(٥) الحائط : البستان من النّخيل وغيره إذا كان عليه جدار .

وجعلته فى كسائى . فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرّجل : ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً ولا علّمته إذ كان جاهلاً .فأمره النّبىّ ﷺ فردّ إليه ثوبه ، وأمر له بوسقٍ من طعامٍ أو نصف وسق[١] وروى أبو داود عن الحسن عن سمرة أن النّبىّ ﷺ قال : إذا أتى أحدكم على ماشيةٍ فإن كان فيها صاحبها فليستأذنه فإن أذن له فليحتلب وليشرب . وإن لم يكن فيها فليصوّت ثلاثاً فإن أجاب فليستأذنه ، فإن أذن له وإلا فليحتلب وليشرب ولا يحمل[٢] .

فإن اضطرّ إلى خمرٍ فثمّة رأيان . لا يشرب لأنّ الله تعالى حرّم الخمر تحريماً مطلقاً ويشرب للضرورة[٣] .

الآيــة رقــم (١٧٤)

قال تعالى : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النّار ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم ﴾ .

سـبب النّزول :

روى عن ابن عبّاس أنّها نزلت فى علماء اليهود ، كانوا يصيبون من سِفْلتهم هدايا وكانوا يرجون أن يكون النّبىّ المبعوث منهم ، فلمّا بُعث من غيرهم غيّروا صفته وقالوا هذا نعت النّبىّ الّذى يخرج فى آخر الزّمان حتّى لا يتّبعوه . وروى عنه أنّه قال : إنّ الملوك سألوا علماءهم قبل المبعث ما الّذى تجدون فى التّوراة فقالوا : نجد أنّ الله يبعث نبيّاً من بعد المسيح يقال له محمّد بتحريم الرّبا والخمر والملاهى وسفك الدّماء : فلمّا بُعث قالت الملوك لليهود : هذا الّذى تجدونه فى كتابكم فقالوا طمعاً فى أموال الملوك : ليس هذا بذلك النّبىّ . فأعطاهم الملوك الأموال فأنزلت إكذاباً لهم : وقيل : نزلت فى كلّ

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٥ وتفسير ابن كثير ٢٠٦/١

(٢) تفسير القرطبىّ ص ٦٠٥ (٣) انظر تفسير القرطبى ص ٦٠٧

كاتم حقّ لأخذ عرض أو إقامة غرض من مؤمنٍ ويهوديٍّ ومشركٍ ومعطّل[١] .

الكتاب : التّوراة أو التّوراة والإنجيل[٢] .

ويشترون به : ويبتاعون به[٣] والضّمير عائدٌ على الكتمان والمعنى : ابتاعوا بكتمانهم ما كتموا النّاس من أمر محمّد ﷺ وأمر نبوّته ثمناً قليلا[٤] .

ولا يزكّيهم : ولايطهّرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم[٥] .

الآية الكريمة ذات علاقةٍ بالآية الكريمة السّابقة التاسعة والخمسين بعد المائة والّتى تتحدّث فى الموضوع ذاته . قال تعالى : ﴿ إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّناه للنّاس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون ﴾ ومن البيّن أنّ فى هذه الآية الكريمة تفصيلاً بشأن ما أنزل الله تعالى فثمّة الآيات البيّنات والهدى الّذى بيّنه الله تعالى للنّاس فى الكتاب ولكّن رجال الدّين الضّالّين المضلّين قد صرفوا الآيات عن وجهها وفسّروها بغير معناها الحقيقىّ الّذى هم له عارفون وبه عالمون : أمّا فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها فثمّة اكتفاء بذكر الكتاب : ومعروفٌ أنّ كلّ كتب الله تعالى الموحاة إلى أنبيائه فيها آيات بيّنات وفيها هدىً ونور : وحينما يكون ثمّة اكتفاءٌ بذكر الكتاب يكون ثمّة فهمٌ تامٌّ لمتعلّقات الكتاب الّتى نصّت عليها الآية الكريمة السّابقة . ومع أنّ المراد بالكتاب فى المقام الأوّل التّوراة وبالّذين يكتمون ما أنزل الله تعالى أحبار اليهود الّذين كتموا نعته ﷺ الّذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التّوراة ، والمعروف أنّ هذا هو موقف اليهود فى الجملة منه ﷺ بعد الهجرة بخاصّة وقد التقى أحبار اليهود به عليه الصّلاة والسلام وجهاً لوجه ، مع أنّ المراد بالكتاب وبالّذين كتموا التّوراة وأحبار اليهود فى المقام الأوّل فإنّ الآية الكريمة تشمل وراء ذلك النّصارى الّذى لهم منه ﷺ موقفٌ مشابه ، وعليه يكون المراد بالكتاب التّوراة والإنجيل وبالّذين كتموا أحبار اليهود وعلماء

---

(١) البحر المحيط ٤٩١/١ وانظر الطّبرىّ ٥٢/٣ وتفسير ابن كثير ٢٠٦/١ وتفسير القرطبى ٦١٢

(٢) البحر المحيط ٤٩١/١ (٣) تفسير الطّبرىّ ٥٣/٢

(٤) انظر تفسير الطّبرىّ ٥٣/٢ والبحر المحيط ٤٩١/١ وتفسير القرطبىّ ٦١٣ .

(٥) تفسير الطّبرىّ ٥٣/٢

النّصارى الّذين كتموا نعته ﷺ وهم الّذين يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل[١] . وتنسحب الآية الكريمة وراء ذلك على كلّ من تحقّقت فيه هذه الصّفات السّيّئة .

وقد جاء فى الآية الكريمة السّابقة القول : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا ﴾ مستعملاً نون العظمة . بينما جاء فى الآية الكريمة هذه لفظ الجلالة الله : ﴿ إنّ الّذين يكتمون ما أنزل الله ﴾ وإنّ مجئ لفظ الجلالة هنا بصريح اللّفظ مرشّحٌ لمجيء لفظ الجلالة ذاته فى العقاب المترتّب على هذا الكتمان وذلك فى القول : ﴿ ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ﴾ على نحو ما سيبين إن شاء الله تعالى بشيءٍ من التّفصيل[٢] .

وفى مقابل اكتفاء الآية الكريمة بذكر الكتاب الّذى أنزل الله تعالى اعتماداً على التّفصيل فى الآية الكريمة السّابقة ، كان ثمّة إضافةٌ ليست فى الآية الأخرى وفى هذه الإضافة تعيينٌ للباعث لهؤلاء الأحبار والعلماء على كتم نعته ﷺ وهو الرّشاء الّتى كانوا يأخذونها مقابل ذلك الكتمان الّذى يشترون به ثمناً قليلاً : والآية الكريمة تصف ذلك الثّمن بأنّه قليل لأنّ المال الّذى يأخذونه وإن كان كثيراً فلأنّه مالٌ خبيثٌ وحرام هو مالٌ قليلٌ فى حقيقته لأنّه لا بركة فيه فى الدنيا ولأنّ العذاب عليه شديدٌ يوم القيامة : وقس على ذلك المنصب الزّائل والجاه الحائل . إنّ كلّ ما ينال ثمنٌ قليلٌ فى مقابل صرف عباد الله تعالى ، عن عمدٍ وسبق إصرار ، من طريق الهدى إلى طريق الضّلالة . وممّن يأتى الإضلال ؟ ممّن لا يتوقّع منه وفيه إلاّ الهداية . هذه هى الطّامّة الكبرى والبليّة العظمى .

وحينما تنصّ الآية الكريمة على عمليّة الاشتراء وهى بمعنى الابتياع هنا وعلى الثّمن القليل الّذى حصل عليه رجال الدّين فى مقابل خيانتهم لله تعالى ولرسوله الكريم وخيانتهم لأمانة العِلْم وخيانتهم لأخطر قضيّة ألا وهى قضيّة الدّين نعلم أنّ علماء السّوء قد نزلوا بالعلم الّذى خصّهم الله تعالى به وائتمنهم عليه إلى سوق البيع والشّراء وعرضوه كما

---

(١) نصّ أبو حيّان فى البحر المحيط ٤٩١/١ على بعض المواضع فى التّوراة الّتى فيها ذكر صفات المصطفى ﷺ .

(٢) انظر هنا الكلام العظيم لأبى حيّان فى البحر المحيط ٤٩٣/١

يعرض التّاجر لسلعته . وبسبب انحطاط همّتهم وهوانهم على النّاس وعلى أنفسهم باعوا أغلى ما يملك العالم القوىّ الأمين بالثّمن القليل الّذى يعنى الدّراهم المعدودة ، ويعنى المنصب العابر والجاه الزّائل ، ويعنى الخزى الدّائم والحسرة الباقية والعذاب الأليم .

أما وقد نصّت الآية الكريمة من بين ما يحصل عليه علماء السّوء الكاتمون للعلم الخائنون للأمانة على الثّمن القليل ، وبما أنّ الحصول على الطّعام من أهمّ مصارف المال ، فقد نصّت الآية الكريمة على هذا الوجه من أوجه إنفاق الثّمن القليل . وفى أىّ طرق إعجاز القرآن الكريم عبّرت الآية الكريمة عن هذا المعنى ؟ عن طريق تقرير العذاب الأليم الّذى ينتظر أولئك الكاتمين وذلك فى هيئة نار جهنّم الّتى يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ، وعذاب السّعير الّذى ينتظرهم : ﴿ أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلاّ النّار ﴾ إنّ أولئك الّذين تلك صفاتهم والّذين أكلوا الثّمن القليل الّذى حصلوا عليه مقابل خيانتهم أمانة العلم ، ما يأكلون فى الحقيقة فى بطونهم الّتى لا تشبع ولا تمتلئ وتظلّ تطلب المزيد من حرام وحلال ، ما يأكلون فى الحقيقة إلاّ النّار وبئس القرار ، لأنّ هذا الّذى يأكلونه حرامٌ وسحت وسيفضى بهم إلى النّار وبئس القرار : وبناءً على ذلك هم فى حكم من يأكل فى هذه الحياة الدّنيا النّار الّتى سيصلاها فى الآخرة بسبب هذا الأكل : ومن هو العاقل الّذى يأكل فى هذه الحياة الدّنيا النّار ؟ فكيف بنار الآخرة الّتى يأكلها فى هذه الحياة الدّنيا هنيئاً مريئاً علماء السّوْء الّذين يعلمون أنّهم يوم القيامة آكلوها فكأنّهم يأكلونها فى الدّنيا : ومن هم الّذين يأكلون النّار فى الدّنيا ؟ الّذين يفترض فيهم أن يعلّموا عباد الله تعالى ممّا علّمهم الله تعالى كى يفوزوا بأن يزحزحوا عن النّار ويدخلوا الجنّة . وحينما يكون علماء السّوء على علمٍ أكيد بحقيقة نار الآخرة الّتى وقودها النّاس والحجارة لا يكاد ينتهى العجب من عمى بصائر علماء السّوء هؤلاء .

ومن البيّن أنّ أكل علماء السّوء النّار فى بطونهم مقابل الثّمن القليل الّذى أخذوه ، وهذه النّار المأكولة تذكّرنا بمثل قوله تعالى فى سورة النّساء[1] ﴿ إنّ الّذين يأكلون أموال

---

(١) الآية ١٠ .

اليتامى ظلماً إنّما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ فما الّذى ترتّب فى الآية الكريمة على كتمان علماء السّوْء ما أنزل الله من الكتاب ؟

إنّ علينا أن نفهم أوّلاً ما الّذى ترتّب على كتمان العلم الحقّ : إنّ الّذى ترتّب على كتمان علماء السّوء العلم الحقّ هو أنّهم لم يشهدوا ألا إلـه إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله أى أنّهم لم يشهدوا شهادة الحقّ و لم يعلنوها و لم يدلوا بها و لم يرشدوا و لم يدعوا إليها بل إنّهم ضلّلوا أتباعهم الّذين لم يشهدوا كذلك شهادة الحقّ . وحينما تكتم شهادة الحقّ تعلن شهادة الباطل فما الّذى يستحقّه ذلك الّذى يكتم العلم الحقّ وقد علّمه الله تعالى ذلك العلم الحقّ وعلّمه البيان من أجل إعلان شهادة الحقّ هذه فى المقام الأوّل ؟ إنّ الآية الكريمة تنصّ على ما استحقّه أولئك الكاتمون وما يستحقّه كلّ كاتمٍ للعِلم النّافع . قال تعالى : ﴿ ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ﴾ .

لقد جرت العادة فى حقّنا نحن البشر أنّا حينما لا نكلّم شخصًا مّا فذلك دليلٌ على انصرافنا عنه وغضبنا عليه . ومن هنا فهم العلماء أن قوله تعالى : ﴿ ولا يكلّمهم الله ﴾ : عبارةٌ عن الغضب عليهم وإزالة الرّضا عنهم . يقال : فلانٌ لا يكلّم فلاناً إذا غضب عليه[1] أو لا يكلّمهم بما يحبّون ويشتهون ، فأمّا بما يسوءهم ويكرهون فإنّه سيكلّمهم[2] قال تعالى[3] : ﴿ ومن خفّت موازينه فأولئك الّذين خسروا أنفسهم فى جهنّم خالدون . تلفح وجوهَهُمُ النّارُ وهم فيها كالحون : ألم تكن آياتى تُتْلى عليكم فكنتم بها تكذّبون . قالوا ربّنا غلبت علينا شِقْوتُنا وكنّا قوماً ضالّين . ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون : قال اخسئوا فيها ولا تكلّمون : إنّه كان فريقٌ من عبادى يقولون ربّنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الرّاحمين . فاتّخذتموهم سِخْرِيّاً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾ .

وسبق أن تبيّنّا أنّ من مظاهر التّرابط بين حبّات المعنى فى الآية الكريمة مجىّ لفظ الجلالة هنا وذلك على غرار مجيئه فى الجملة السّابقة : هذه هى الجملة السّابقة : ﴿ إن الّذين

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦١٣ وانظر الكشّاف ١/٢٥١

(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/٥٣ (٣) سورة المؤمنون ١٠٣ — ١١٠

يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ وهذه هى الجملة المرتبطة بها المترتّبة والمبنيّة عليها : ﴿ ولا يكلّمهم الله يوم القيامة ﴾ يقول أبو حيّان[١] : « لمّا كانت الجملة الأولى مشتملةً على فعلٍ مسندٍ إلى الله كان الكلام الّذى قابلها فيه فعلٌ مسندٌ إلى الله » .

وحينما لم يدل أولئك فى الحياة الدّنيا بشهادة الحقّ شهادة ألاّ إلٰه إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله أدلوا بشهادة الزّور فأعلنوا الكفر به ﷺ ، بل إنّ أحبار اليهود أخبروا كفّار مكّة بأنّهم ، يعنى كفّار مكّة ، على الهدى أمّا محمّدٌ ﷺ فعلى الضّلال : قال تعالى[٢] : ﴿ ألم تر إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلا . أولئك الّذين لعنهم الله ومن يَلْعَنِ الله فلن تجد له نصيرا ﴾ وما الّذى يستحقّ أولئك الّذين لا يكلّمهم الله تعالى يوم القيامة الّذين لم يدلوا بشهادة الحقّ فى الحياة الدّنيا بل أدلوا بشهادة الزّور ؟ هل يستحقّون أن يزكّيهم الله تعالى ؟ بطبيعة الحال لا يستحقّ الكاتمون لشهادة الحقّ المدلون بشهادة الزّور أن يزكّيهم الله تعالى أو أن يطهّرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم .

وهكذا نتبيّن تدرّج عقاب هؤلاء الكاتمين نحو الأعلى ، فثمّة النّار وبئس القرار ، وغضب الله تعالى عليهم وعدم تزكيته جلّ وعلا لهم وتطهيرهم من ذنوبهم . ويتوّج كلّ ذلك العقاب بالعذاب الأليم ، المؤلم الموجع . والمعروف أنّ من صفات العذاب الأليم أنّه عظيمٌ وموجع . وإنّ هذا النّوع من العذاب هو الّذى يستحقّه كاتمو ما أنزل الله تعالى كاتمو شهادة الحقّ ، شهادة ألاّ إلٰه إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله : يقول أبو حيّان[٣] : « فرتّب على اشتراء الثّمن القليل قوله : ﴿ ما يأكلون فى بطونهم إلاّ النّار ﴾ . وعلى الكتمان قوله : ﴿ ولا يكلّمهم الله ﴾ وعلى مجموع الوصفين قوله : ﴿ ولا يزكّيهم ولهم عذابٌ أليم ﴾ ».

---

(١) البحر المحيط ٤٩٣/١

(٢) سورة النّساء ٥١ ، ٥٢

(٣) البحر المحيط ٤٩٣/١

الآيــة رقــم (١٧٥)

قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النّار ﴾ .

فما أصبرهم على النّار : مذهب الجمهور منهم الحسن ومجاهد أنّ « ما » معناه التّعجبّ وهو مردودٌ إلى المخلوقين كأنّه قال : اعجبوا من صبرهم على النّار ومكثهم فيها : وفى التّنزيل : قتل الإنسان ما أكفره . وأَسْمِع بهم وأَبْصِرْ . وبهذا المعنى صدر أبو علىّ[1] وأجمع النّحويّون على أنّ ما التّعجّبيّة فى موضع رفع بالابتداء[2] .

تبيّنّا أنّ كاتمى ما أنزل الله تعالى من الكتاب قد ابتاعوا بالكتمان ثمناً قليلاً من مالٍ زهيد أو جاهٍ عريض مآله إلى الزّوال مع بقاء سوء الذّكر بين العباد واللّعنة من ربّ العباد : وبهذا يكون رجال الدّين هؤلاء قد تعاملوا مع العلم الّذى خصّهم الله تعالى به كما يتعاملون مع أىّ سلعةٍ خاضعةٍ للعرض والطّلب ، البيع والشّراء . وقد دفعوا الثّمن كتماناً للعلم الحقّ وترويجاً للباطل : وأخذوا فى المقابل مالاً أو منصباً أو جاهاً : وإنّ هذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها لتعمّق من جشع علماء السّوء هؤلاء وتكالبهم على حطام الدّنيا الفانى ونعيمها الزّائل ، وها هى ذى تبدأ باسم الإشارة الدّالّ على البعد والّذى سبق أن جاء فى الآية الكريمة السّابقة « أولئك » دليلاً على بعد علماء السّوء عن النّهج القويم والصّراط المستقيم ، وها هى ذى تقرّر اشتراءهم فى الحياة الدّنيا الضّلالة بالهدى وفى الآخرة العذاب بالمغفرة .

إنّ جملة اشترى فى الآية الكريمة توحى بعمليّة التملّك عن طريق الشّراء : وقد جرت العادة بأنّ الشّخص إنّما يشترى الشّىء الّذى يحبّ ويودّ ، ويهون عليه فى سبيل ذلك أن يدفع الثّمن وإن كان غالياً . أما وقد عرفنا أنّ علماء السّوء قد دفعوا خيانتهم أمانة العلم الّذى

---

(١) تفسير القرطبىّ ص ٦١٤ وانظر تفسير الطّبرىّ ٢/٥٤

(٢) البحر المحيط ١/٤٩٤

ائتمنهم الله تعالى عليه مقابل الحصول على المال الفانى والمجد الزّائل ، فما الّذى اشتراه فى الحقيقة علماءُ السّوء فى هذه الحياة الدّنيا ؟ الجواب فى قوله تعالى : ﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى ﴾ إنّ الثّمن الّذى دفعه علماء السّوْء هو الهدى : وإنّ المقابل الّذى أخذوه هو الضّلالة .

إنّ أولئك العلماء الّذين ائتمنهم الله تعالى على العلم الّذى ورّثه أنبياء الله تعالى ورسله أتباعهم ، والّذين أخذ الله تعالى عليهم الميثاق بأنْ يبيّنوا للنّاس معانى آيات الله تعالى فى الكتب السّماويّة الموحاة إلى رسل الله تعالى وألاّ يكتموها قد عملوا بعكس الميثاق الّذى أخذ منهم . لقد أمروا بعدم كتم العلم الحقّ وهم قد كتموه . وأمروا بأن يبيّنوا للنّاس العلم الّذى آتاهم الله تعالى إيّاه فلم يبيّنوه : بل إنّهم وقد أعمى بصائرَهُمُ الجشعُ والتّكالب على حطام الدّنيا قد أظهروا علماً لم يعلّمهم الله تعالى إيّاه وإنّما علّمهم إيّاه نفوسهم الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم فتعدّى الضّلال الّذى هم فيه إلى غيرهم من عامّة النّاس الّذين يصغون إليهم ويصدّقونهم فيما يقولون ويعتبرونهم مثلهم العليا الّتى بها يقتدون فيما يفعلون . وكانت النّتيجة أن انصرفت عامّة النّاس عن اتّباع المصطفى ﷺ إلا من رحم ربّك ورسخ هذا الانصراف لدى الأتباع الّذين سبق إلى رُوعهم أنّ العلم الصّحيح لدى أحبارهم وعلمائهم بينما الحقيقة عكس ذلك : ليس لدى أولئك العلماء سوى الحسد لنبىّ الإسلام ولأمّة الإسلام والخوف على مصالحهم الدّنيويّة أن تزول لزوال سلطتهم الدّينية فاعتبروا مسألة انتصار باطلهم مسألة حياةٍ أو موتٍ بالنّسبة لهم . وهكذا يتبيّن كيف أنّ علماء السّوْء قد اشتروا الضّلالة بالهدى الّتى عرفوها ووقفوا عليها وكان المفروض فيهم والواجب عليهم أن يَعَضّوا عليها بالنّواجذ وأن يستمسكوا بها ويواصلوا السّير وفقها ولكنّهم وقد أعمى الله تعالى بصائرهم قد دفعوا هذا الهدى ونوره ثمناً للضّلالة وظلماتها فيالها من صفقةٍ خاسرةٍ غير رابحة ، فى الدّنيا على النّحو الّذى تبيّن وفى الآخرة وإلى ذلك أشار قوله تعالى﴿ أولئك الّذين اشتروا الضّلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ﴾ .

إنّ علماء السّوء قد دفعوا الهدى ثمناً للضّلالة فاستبدلوا الّذى هو أدنى بالّذى هو خير ،

وبما أنّ من آثر الضّلالة على الهدى يستحقّ عذاب الآخرة الشّديد العظيم الأليم فكأنّ علماء السّوء قد اشتروا العذاب . وما هو الثّمن الّذى دفعوه للضّلالة ؟ . بما أنّهم دفعوا الهدى ثمناً للضّلالة فقد دفعوا الهدى الّذى كانوا على علمٍ تامٍ به وقد تبيّنوا صدق المصطفى ﷺ الّذى أنزل الله عليه القرآن الّذى يهدى إلى الطّريقة الّتى هى أقوم فكأن القوم قد دفعوا ثمناً للعذاب الّذى استحقّوا على كتمانهم العلم الحقّ ، المغفرة الّتى كانوا منها قاب قوسين أو أدنى ، والّتى كانوا بفضل الله تعالى ومنّه ، وعفوه وكرمه ، أهلاً لها لو عملوا وفق ما آتاهم الله تعالى من علم .

ولا يملك كلّ عاقلٍ وقد وقف على ضلال علماء السّوء عن عمدٍ وسبق إصرار إلاّ أن يرفع صوته بما جاء فى الآية الكريمة من صيغة التّعجب من هؤلاء الّذين أضلّهم الله على علم : ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ والمعنى : اعجبوا من صبرهم على النّار ومكثهم فيها[1] روى عن الكسائىّ أنّه قال : قال لى قاضى اليمن وهو بمكّة : اختصم إلىّ رجلان من العرب فحلف أحدهما على حقّ صاحبه فقال له : ما أصبرك على الله . والمعنى : ما أصبرك على عذاب الله[2] .

الآيــة رقــم (١٧٦)

قال تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله نزّل الكتاب بالحقّ ، وإنّ الّذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاقٍ بعيد ﴾ .

ذلك : فى موضع رفع ، وهو إشارةٌ إلى الحكم ، كأنه قال : ذلك الحكم بالنّار .

وقال الزّجّاج : تقديره : الأمر ذلك . أو ذلك الأمر أو ذلك العذاب لهم .

قال الأخفش : وخبر ذلك مضمر معناه ذلك معلومٌ لهم[3] ويعلّق الطّبرىّ[4] على

---

(١) تفسير القرطبىّ ٦١٤

(٢) انظر معانى القرآن للفرّاء ١٠٣/١ والكشّاف ٢٥١/١

(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦١٥ وانظر معانى القرآن للأخفش ١٥٦/١

(٤) تفسير الطّبرىّ ٥٥/٢

رأى الأخفش ومن قال بهذا الرّأى : « كأنّ قائلى هذا القول كان تأويل الآية عندهم : ذلك العذاب الّذى قال الله تعالى ذكره : فما أصبرهم عليه ، معلومٌ أنّه لهم لأنّ الله قد أخبر فى مواضع من تنزيله أنّ النّار للكافرين : وتنزيله حقّ فالخبر عن ذلك عندهم مضمر » .

بأنّ الله : بسبب أنّ الله(١) ومن أجل أنّ الله(٢) .

بالحقّ : أى بالصّدق وقيل بالحجّة(٣) قال ابن عبّاس : بالعدل(٤) .

لفى شقاقٍ بعيد : لفى خلافٍ بعيدٍ عن الحقّ(٥) ومنازعةٍ ومفارقةٍ للحقّ بعيدةٍ من الرّشد والصّواب كما قال الله تعالى ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنّما هم فى شقاق(٦) ﴾ .

الآيتان الكريمتان السّابقتان اللّتان تتحدّثان عن كتم ما أنزل الله من الكتاب وعن العذاب الأليم الّذى ينتظر الكاتمين تتعلّقان فى المقام الأوّل بأهل الكتاب الّذين كتموا نعته ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التّوراة والإنجيل . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها مبنيّة على سابقتها ومترتّبة عليها ، فهى تبدأ بالقول : « ذلك » والمعنى كما مرّ بنا : ذلك العذاب الّذى قال الله تعالى عنه : فما أصبرهم عليه ، معلومٌ أنّه لهم . وإنّما كان ذلك العذاب الأليم لهم بسبب أنّ الله تعالى نزّل الكتاب بالحقّ ، فكلّ الكتب السّماويّة ومنها التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الّذى أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام والقرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى على محمّد بن عبد الله ﷺ ، قد نزل كلٌّ منها بالحقّ ، بالصّدق فى الأقوال والعدل فى الأحكام . جاء فى حقّ التّوراة قوله تعالى(٧) : ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدًى ونور ﴾ وجاء فى حق الإنجيل قوله تعالى(٨) : ﴿ وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة وآتيناه

---

(١) الكشّاف ١/٢٥١
(٢) تفسير الطّبرىّ ٢/٥٤
(٣) تفسير القرطبىّ ص ٦١٥
(٤) البحر المحيط ١/٤٩٥
(٥) الكشّاف ١/٢٥١
(٦) تفسير الطّبرىّ ٢/٥٥
(٧) سورة المائدة ٤٤
(٨) سورة المائدة ٤٦

الإنجيل فيه هدىً ونورٌ ومصدّقاً لما بين يديه من التّوراة وهدىً وموعظةً للمتقيت﴾ وجاء فى حق القرآن الكريم قوله تعالى(١) : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحقّ مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ وقوله تعالى(٢) : ﴿ وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل ﴾ إنّ كتب الله تعالى يصدّق بعضها بعضاً . وقد أخذ الله تعالى ميثاق النّبيّين الّذين أخذوا بدورهم الميثاق من أممهم بأنّ عليهم أن يؤمنوا بالرّسول الّذى يبعثه الله تعالى مصدّقاً لما معهم وأن ينصروه : لقد أُخِذ هذا الميثاق على موسى عليه الصّلاة والسّلام وقومه فى حقّ عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام . وأخذ هذا الميثاق على عيسى عليه الصّلاة وقومه فى حقّ محمّد بن عبد الله ﷺ . وإلى ذلك أشار قوله تعالى(٣) : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النّبيّين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثمّ جاءكم رسولٌ مصدّقٌ لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه : قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا : قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين ﴾ . وفى كلٍّ من التّوراة والإنجيل نعت المصطفى ﷺ ، وقد بشّر عيسى عليه الصّلاة والسّلام بالرّسول الخاتم محمّد بن عبد الله ﷺ وإلى ذلك أشار قوله عزّ من قائل(٤) : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنّى رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يدىّ من التّوراة ومبشّراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلمّا جاءهم بالبيّنات قالوا هذا سحرٌ مبين ﴾ .

ويلحق بكفّار اليهود والنّصارى كفّار مكّة ومن لفّ لفّهم من المناوئين للمصطفى ﷺ ولدعوة الحقّ الّتى جاء بها .

والآية الكريمة تقرّر أنّ الّذين اختلفوا فى الكتاب ، سواءٌ كانوا يهوداً فسّروا كتاب الله تعالى إليهم وفق أهوائهم وجحدوا نبوّة المصطفى ﷺ ومعجزته الكبرى الخالدة القرآن الكريم ، أو كانوا نصارى لهم الموقف ذاته من كتاب الله تعالى إليهم ومن القرآن الكريم ، أو كانوا من المناوئين من غير اليهود والنّصارى ، تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق عن الحقّ بعيد ، وخلافٍ غير سديد ، ونزاعٍ غير رشيد .

---

(١) سورة المائدة ٤٨
(٢) سورة الإسراء ١٠٥
(٣) سورة آل عمران ٨١
(٤) سورة الصفّ ٦